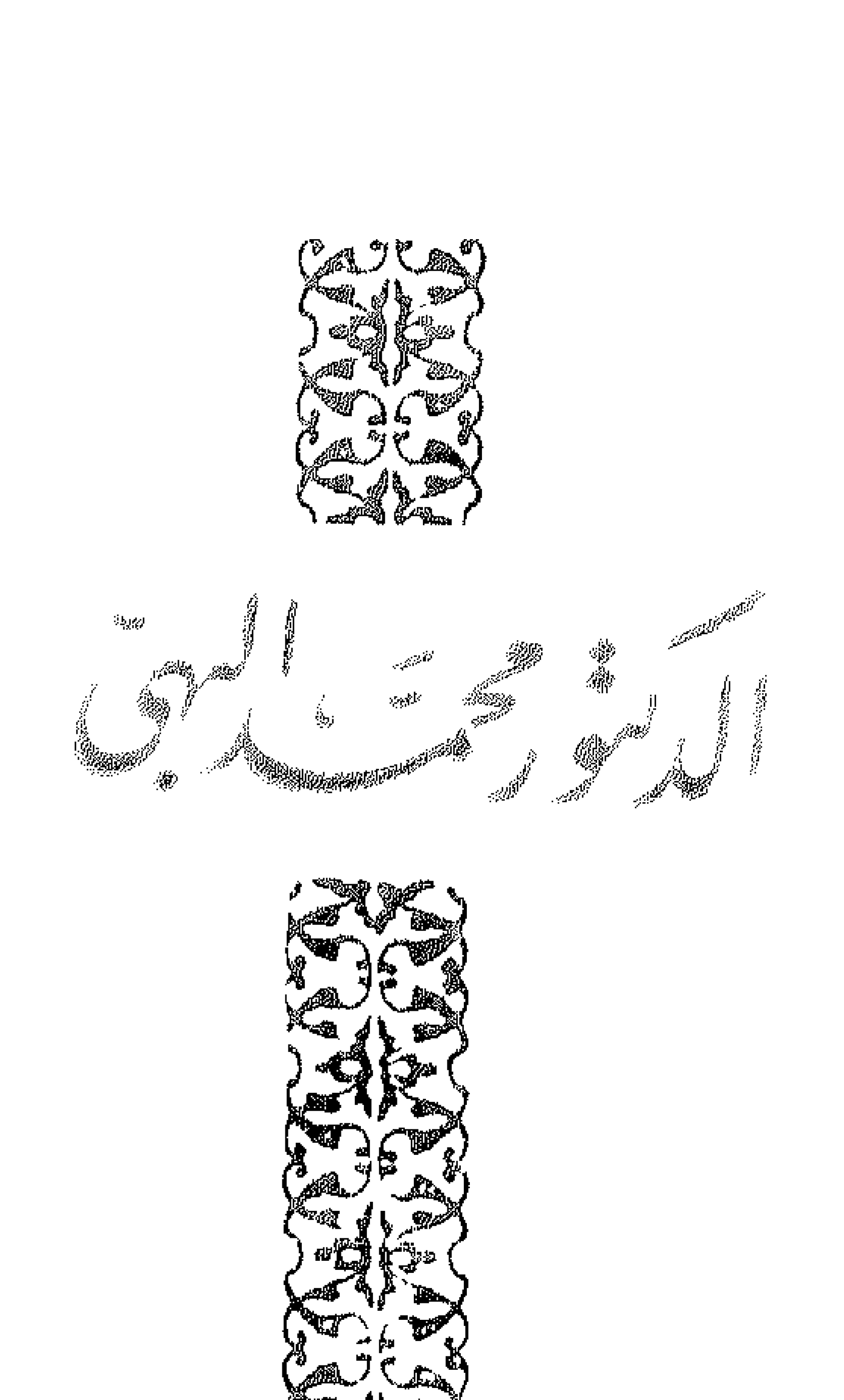
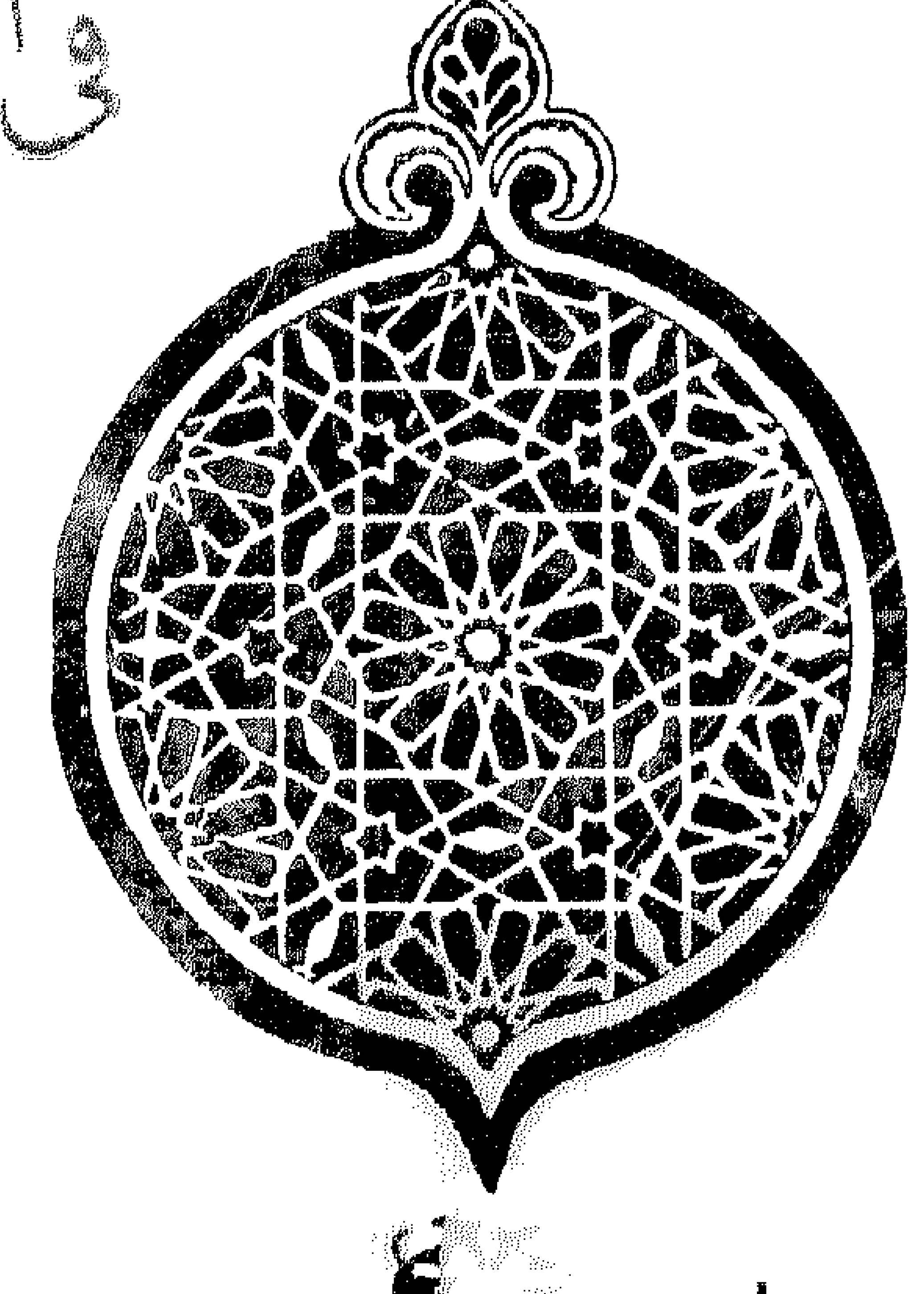
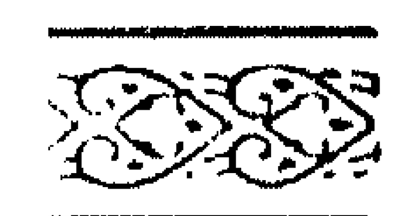
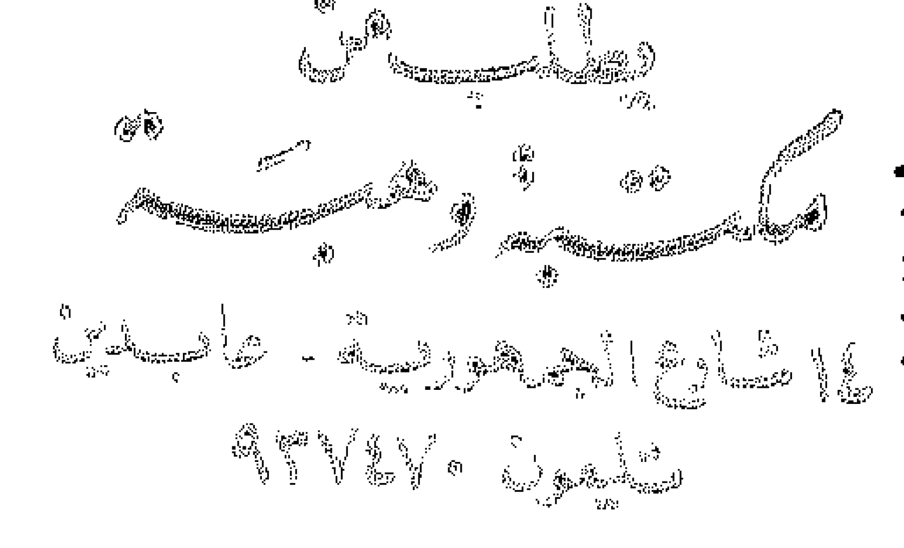


الدكتور محمد البهي

الإسلام
في الواقع الايديولوجي المعاصر



يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٢٧٤٧٠





الدكتور محمد البهي

الإسلام

في الواقع الايديولوجي المعاصر

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعـــة الثـــانية

المحرم سنة ١٤٠٣ هـ — أكتوبر سنة ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ان التقدم التيكنولوجى فى عالم اليوم زاد من اختلاط الأمم فى أفكارها وفى نظمها الخاصة بحياتها وفى تقاليدها وفيما يطرأ على التقاليد والأعراف من تغيير . كما زاد من معرفة اللغات والتطلع الى دراسة الثقافات الموروثة لدى الأمم على اختلافها وتباين اتجاهاتها فيما مضى .

ورقعة العالم الاسلامى تكاد تكون الوسط فى اللقاء فى عالم اليوم ، كما هى المكان الذى تكتمل فيه مصادر الثروة للانســـان . ومن ثم كانت فى القرن الماضى وطيلة النصف الأول من قرننا الحالى هدفا لسطو المغتصبين من أصحاب الصناعات وما تزال الهدف لصراع القوى السياسية العالمية التى تمهد للاستغلال الاقتصادى فى عهد التقدم التيكنولوجى الرهيب

ومن أجل ذلك يمكن أن يقال : ان المركز الجغرافى والاقتصادى الذى تتميز به رقعة العالم الاسلامى هو العامل الأول فى التقاء الأيديولوجيات المعاصرة وتزاحمها بل وتنافسها على التشبث بالبقاء فيها ثم بالسيادة عليها .

والاسلام وهو دين التوجيه الأصيل للمسلمين فى رقعتهم التى يعيشون فوقها كما هو الأساس الذى ينجذب اليه ايمان المؤمنين به ... يتعرض لهجوم الأيديولوجيات القادمة أو المستقدمة والتى هى فى هجومها تغلظ شدة وعنفا تبعا لاستكانة المسلمين ، وقد ألفوها فى عهود الاحتلال والاستعمار ثم أكرهوا على الاستمرار عليها بعد الاستقلال فى ظل الحكم الوطنى وعلى أيدى محترفيه ممن يجهلون كل قيمة فى وطنهم عدا لون الوجوه ولغة الحديث العامى .

وهذا الكتاب يقدم موقف الاسلام في مواجهته لتحديات هذه الأيديولوجيات كما يعرض للقيمة الذاتية لها كنموذج يهتدى به القارىء عندما يسمع رنين بعض هـذه الايديولوجيات أو يرى الخداع الذي البس به البعض الآخر منها .

وسيظل ذاك الرنين يقرع أسماع المسلمين ، كما سيظل هذا الخداع يجتذب اليه أنظار البعض الآخر منهم ، طالما الاسلام تتلى مبادئه وكأنها اقوال لا تفهم ، أو تعرض وكأنها لصنف آخر من المخلوقات عاش ثم انقرض ، أو يعيش في وجود آخر غير وجود الانسان .

ان الجيل الحاضر من أبناء المسلمين جيل معذب ، لأنه موزع بين الانتماء الى عقيدة موروثة يحرص على الانتساب اليها ولكن لا يعرف الطريق الى تجليتها أو الاقتناع بها في داخل نفسه .. وبين فلسفات يوحي بعضها بالاغراء ويتسلط ببعضها الآخر حكام نسوا كل شيء الا شهوة الحكم وجاه السلطة .

ان هذا الجيل الحاضر من أبناء المسلمين ان لم يمهد أمامه الطريق لفهم الاسلام في مواجهة التحديات التي تقتحم عليه حياته سيسلم أمر نفسه الى تبعية أجنبية خبيثة لا يدرى مداها ، أو ينحدر الى وضع في سلوكه ينسى فيه كرامته الانسانية ولا يذكر من ذاته الا جانبه الحيواني .

والله الهادي لسواء السبيل .

مصر الجديدة في ٢٠ المحرم سنة ١٣٨٩ هـ
٢٨ ابريل سنة ١٩٦٨ م

محمد البهي

الفصل الأول

تحديد المفاهيم .. أولاً

- التطور والتقدمية
- الرجعية والجمود
- الروحية والمادية
- الحرية والكبت
- الخرافة والتقاليد
- ضد الدين

تحـــديد المفـــاهيم .. أولا ..

لم يكن اختـــلاف الناس فى الرأى ، واختلافهم فى تطبيقه الا وليـــدا **الاختلاف فى تحديد مفاهيم الأشـــياء ، ومدلول الكلمات ، والمصـــطلحات ،** ولم يكن قيام المذاهب الفلسفية أو الدينية أو السياسية ، ولم تكن التبعية لها والجمود فى تلك التبعية الا نتيجة الاختلاف فى الرأى وفى تطبيقه ..

والمجتمع الانسانى ، أى مجتمع ، من حق أفراده أن يختلفوا فيما تدل عليه الكلمة التى صارت مصطلحا ، وأصبحت عنوانا لتوجيه خاص . ومن حق هؤلاء الأفراد أن ينزعوا الى الاختلاف فى الفهم ، وفى تطبيق ما يفهم لأنه حق طبيعى للانسان كمفكر تأثر بوراثة خاصة ، وعاش فى بيئة معينة ، وحاكى فى توجيهه نموذجا ، حدد معالمه طابع المعرفة التى تلقاها فى مدرسته ، ونوع التجارب التى مر بها مجتمعه ..

ولكن ليس من حـــق هؤلاء الأفراد أن يكونوا موجهين ولا قـــادة فى الراى ، لأن من يصل الى درجة القيادة فى توجيه المجتمع ، يصل الى قيادته عن طريق التفكير الفلسفى ، أو عن طريق الكتاب والمقال ، أو عن طريق الفن الحاكى والمعبر — يجب الا يقف فى فهم المصـــطلحات ، التى صارت عناوين لتوجيهات خاصة ، عند حـــد الانسان العادى ، ويضيف الى الفهم لونا خاصا ليستوحيه من رغباته وعواطفه الشخصية .. يجب أن يقف به فى دائرة الفكر الموضوعى منفصلا عن الميول الشخصية بقدر الامكان ..

ان من يصل من المفكرين الى درجة القيادة والتوجيه فى المجتمع يجب أن يكون **ذا مستوى تفكيرى فوق رغباته وعواطفه الشخصية ، وأن يستلهم فى تحديد المفاهيم الحقائق التاريخية وحدها التى لهذه المفاهيم** . وبذلك يكون تحديده هذه المفاهيم تحديدا مجردا عن الرغبات والعواطف ، تحديدا مستندا الى « الموضوعية » دون « الشخصية » بقدر الامكان ..

ان المفاهيم والكلمات التى أصبحت مصطلحات وعناوين على توجيهات خاصة ــ لها تاريخ ، ولها أصول انبثقت عنها . فاذا روعى تاريخها وروعيت أصولها عند التحديد كان تحديدها غير متداخل مع العواطف والرغبات الشخصية ، وبذلك يكون التوجيه القائم عليها أكثر سلامة وأبعد عن الهوى ، مما لو تحكمت فيها ميول الشخص المفكر ورغباته الخاصة .

ونحن نعلم من تاريخ الماضى : كيف أن بعض الكلمات والمصطلحات التى تحول مفهومها بفعل الرغبات الشخصية عن مدلولها الطبيعى التاريخى لعبت فى مجتمعنا الاسلامى سواء فى التوجيه أو السياسة دورا خطيرا . أقل نتائجه كانت الخصومة والتشفى فيها ، وكانت الفرقة وكان سوء الظن بين الأفراد . **كلمة الكفر** عرفها الاسلام وعرف مدلولها المسلمون الأولون واتخذوا من الكافرين موقفا حازما صريحا ، أملته عليهم هذه الآية الكريمة : **« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »** (1) . وكان مفهوم الكفر بعد نزول هذه الآية ليس انكار ما عرف من الدين بالضرورة فحسب ، بل اخذ فيه الاعتقاد بالشرك ومعنى التحدى . والرغبة فى الاعتداء على المسلمين ، وتبييت سوء القصد بهم والانتقام منهم ، والاصرار فى تحديهم وتحدى ما يؤمنون به ، بحيث لم يعد هناك أمل فى مراجعة هذا الاصرار والانصراف عنه . ولذا طلب القرآن الكريم فى هذه الآية استئصال هذه الفئة الباقية من المشركين الكافرين الذين مارسوا العداوة والبغضاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم ــ طلب استئصال بقيتهم حتى لا تكون هناك فى المجتمع الاسلامى الناشىء بذور الفتنة وحتى يخلص الدين بعد ذلك لله . وهنا يستقر الأمن الداخلى فيه وتصان وحدته من عناصر الشر .

ولكن بعد ما انقسم المجتمع الاسلامى على نفسه انقساما مذهبيا وشعوبيا وسياسيا **أعطى للكفر مفهوم جديد ، هو أقرب لمعنى « المعارضة »** وأصبح من اليسير أن يوصف الاختلاف فى الرأى بالكفر ، ويوصف المعارض بالكافر وقد حكم الخوارج على عثمان بالكفر ، ووصف المتشيعون له معارضيه

---

(1) البقرة 193 .

بأنهم كافرون . وهكذا من بعد عثمان كثر استعمال الكفر للمعارضة السياسية لحكومة خليفة ما . حتى اذا هان أمر الخلافة وضعف شأنها ، استخدم المختلفون فى الرأى والمذهب كلمة « الكفر » للمخالف فى الرأى أو المخالف فى المذهب ، ثم شاع استخدامها للمنكر لبعض العادات والتقاليد . وقد رمى ابن تيمية بالكفر من أتباع الاتجاهات الفكرية الاسلامية فى وقته ، لأنه أنكر عليهم التقليد للمذاهب ، والتعصب الحاد لرأى صاحب المذهب أو للمؤلف فيه ، أو للكتاب القائم عليه ، وطلب اليهم الرجوع الى القرآن والسنة الصحيحة ، وأن يستوحوا منهما أحكام الله كما استوحاهما المتقدمون .

(وعلى سبيل المثال سنذكر هنا **بعض كلمات متداولة فى توجيهها المعاصر فى تفكير المفكرين وكتابة الكتاب وتصوير الفنانين ، ونبين : كيف أن الوقوف بها عند أصولها وتاريخها يبعد كثيرا من الأذى والسوء فى التوجيه**، وبالتالى كيف أن ادخال « الشخصية » وما لها من عواطف ورغبات فى تحديد مناهجها يثير القلق والاضطراب فى التوجيه ، ويدفع الى الحزبية والخصومة بين الموجهين والموجهين (١) على السواء ، كما يدفع الى التنابذ بالألقاب وتتبع السيئات الشخصية فيما يكتب ويقال ، وبذلك يصبح المجتمع مجتمع طوائف وخصومات).

* * *

- **التطور والتقدمية :**

فاذا استعرضنا مثلا كلمة **التطور أو التقدمية** فى ظل مدلولها اللغوى وتاريخ مفهومها الذى أراده انسان المفكر الموجه — وجدنا أنه يقصد بالتطور الاستمرار فى الحركة فى خط سير النمو الطبيعى للانسان الفرد ، ولمجتمعه الذى يعيش فيه . وخط سير النمو الطبيعى للانسان الفرد هو الخط الموصل الى تكامل استعداداته الفطرية ككائن يتحرك ويفكر . وتكامله فى حركته ، أن يكون مستقيما فيها غير معوج . وتكاملة فى تفكيره أن يكون حكمه على الأشياء وتقديره للأمور صوابا ، يقل فيه الخطأ . فاذا ما استقام فى حركة كان الانسان المهذب الذى لا يصطدم مع نفسه ولا مع غيره .

---

(١) الموجهين والموجهين : الأولى بكسر الجيم والثانية بفتحها .

واذا كان تقديره للأمور صائبا بقدر الامكان قل اضطرابه وقلقه النفسى بسبب الخداع فى الحكم والتقدير ، وعندئذ يكون واقعيا ، لا متخيـلا ولا مضيفا للواقع صورة غير الصورة التى هو عليها . والانسان الفرد المتطور أو التقدمى هو الانسان المهذب فى سلوكه والواقعى فى حكمه والصـادق فى التعبير عنه .

والسلوك المهذب للانسان هو سلوك الانسان على حقيقته والانسان على الحقيقة هو الكائن المفكر صاحب الارادة والتصـميم ، أو صـاحب الايمان . السلوك المهذب هو السلوك طبقا لخصيصة الانسان ، وطبقا لما يتميز به عن الحيوان . ومن هنا كانت الاستقامة فى سلوك الانسان فى حركته هى أمارة تطوره ، وتقدمه ، أو أمارة ميزته عن الحيوان . والاستقامة فى السلوك لكى تتحقق تتطلب ارادة وتصميما ، أو تتطلب ايمانا . تتطلب ارادة وتصميما على ان خط السير فى الحركة يجب أن يكون على نحـو كذا وفى هذا الاتجاه ، دون أن يكون على نحو آخر ، وتتطلب ايمانا بالنحو الذى يجب أن يكون عليه خط السير فى الحركة . ومن هنا كانت الارادة وكان الايمان ميزة الانسان وخاصيته دون الحيوان .

والتفكير الواقعى — الذى هو أمارة التقدم والتطور فى خصيصة الانسان أيضا — هـو التفكير الذى قـل فيه عنصر الخداع أو قل فيه الخطأ . والانسان يخدع فى تفكيره أو يخطىء فيه اذا انحرف فى خط سير حركته ، أى اذا لم يستقم فى حركته ككائن متحرك له ميزة الارادة والايمان ، فعند الانحراف فى الحركة يتجه تفكير الانسـان الى تبرير الانحراف ، لا الى تضييق دائرة الخـداع أو الخطأ فى الحكم والتقرير . واذا اتجه التفكير الى تبرير الانحراف فى السير لم يحتج الى الارادة ولا الى الايمان . واقترب عندئذ فى أوجه الشبه مع الكائن المتحرك الآخر ، الذى لم يوهب مع طبيعته استعداد الارادة والايمان ، ولم يطلب منه بالتالى بحكم طبيعته أن يكون ذا استقامة فى حركته .

الانسان المتطور المتقدم اذن هو ما عناه الله بقوله تعالى : **« واتقوا الله ، ويعلمكم الله »** (١) . فتقوى الله هى الاستقامة فى السلوك والحركة ،

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

والعلم الذى يرشد اليه الله هو العلم القائم على صدق التقدير والحكم ، والذى انتفى فيه الخداع والخطأ *.

وهنا يمكن أن يقال : **التطور والتقدمية فى دائرة الانسان هى الاستقامة التى تتوقف على الارادة والايمان ، وهى الفكر الصحيح الذى سلم من الخداع والخطأ** . وكلما سار الانسان فى طريق الاستقامة فى السلوك ، أو فى طريق الفكر الصحيح فى التفكير — كلما سار فى طريق التقدم والتطور . وكلما كان الانسان فى ارادة وايمان كلما كان ذا تقدمية وتطور كذلك .

هذا فى حــق الانسان الفرد . **أما المجتمع المتطور المتقدم فهو المجتمع** الذى يقل فيه الاحتكاك والتصادم بين أفراده وجماعاته ، هو المجتمع الذى استقام فيه سلوك أفراده ، وصح تفكيرهم وصدق تعبيرهم ، أو هو الذى ابتعد فيه الانحراف فى خط السير ، كما ابتعد الخداع والخطأ فى التقدير والحكم . اذ المجتمع الانسانى هو تحقيق عملى للاستعداد الفطرى فى الأفراد ، وان كان مساويا لوجودهم كطاقة واستعداد بشرى . المجتمع المتقدم المتطور فى التوجيه هو مـــا قلت فيه الجرائم بأنواعها ، وقلت فيه هيئة الحراســـة والأمن ، وقلت فيه دور القضاء ، هو المجتمع الخلقى المهذب أو هو المجتمع الانسانى الذى ساد فيه الاقرار بالواجب ، وسادت فيه الارادة والايمان ، وساد فيه الصدق والتعبير عن الحق *.

***

● **الرجعية والجمود :**

وعلى العكس من مفهوم التطور والتقدم **مفهوم الرجعية ومفهوم الجمود : الرجعية هى الميل فى السير الى الوراء والعزوف عن متابعة الانســـان فى الحركة نحو النقطة التى يتجمع عندها تكامل استعدادات الانسان الطبيعية ، والجمود هو الوقوف فى الحركة عند مرحلة من مراحل تطور الانسان نحو كماله وتمام نمو طاقاته البشرية** ، وقد عرفنا من قبل أن أمارات تقدم الانسان وتطوره فى السلوك استقامته فيه ، عن طريق الارادة والايمان . كما عرفنا أن أمارات هذا التقدم عنده فى التفكير هى اضمحلال كمية الخيال وكميـــة الخداع والخطأ فى أحكامه وتقديره . واذن الانسان الرجعى هو الانسان

المنتكس ، والانسان الجامد هو الواقف وكلاهما غير المستقيم فى سلوكه ، أو ضعيفه الارادة والايمان ، بحيث لا يستطيع أن يحكم أمر سير نفســه فى خط الحركة المرسوم لنمو الانسان وكماله . وكلاهما غير المفكر تفكيرا دقيقا ، أو هو الذى شاب تفكيره الكثير من الخداع والخيال . وهنا الانسان صاحب الاعتقاد فى الخرافة انسان رجعى متخلف أو جامد . والانسان غير المهذب فى السلوك أو الذى بقى فى دائرة الطفولة البشرية انسان كذلك رجعى متخلف أو جامد .

الانسان الذى يسلك سلوكا قريبا من الحيوانية ولا يشعر بسلوكه أنه يحقق ميزة الانسان ، والذى له منطق الطفل ، هو انسان رجعى متخلف أو جامد : الانسان الحيوان ، أو الانسان الطفل هــو الرجعى والمتخلف أو هو الانســـان الجامد ، الذى انقطع عن السير وفق خطه المرسوم من الطبيعة البشرية الصائرة المتطورة .

ونخلص من ذلك الآن الى **أن مفهوم التطور والتقدم هــو السعى نحو التهذيب ونحــو دقة التفكير فى تقدير الأشياء ، ومفهوم الرجعية والجمود هو عدم الأخذ بسنة التهذيب وطريق الدقة فى التفكير وتقييم الأمور .**

***

فاذا جاء الآن بعض المفكرين أو الكتاب أو الفنانين المعبرين بفنهم . وصور التطور والتقدم فى الانسانية على أنه الاســتجابة لنزعات النفس فى السلوك كنفس لها **الحركة فى أى اتجاه ، دون رعاية لاستقامتها فى هــذه الحركة ، وبالتالى دون حاجة الى ارادة وايمان يضمن هــذه الاستقامة** — فانه لا يصور التطور والتقدم فى واقع أمره ، وبالأحرى هو بهذا التصوير يحدد الرجعية والتخلف ، أو يحدد الجمود وبقاء النفس فى مرحلة من مراحل النمو لا يتجاوز الى ما بعدها ، ولكن باسم التطور . والذى يدعــو الى التطور والتقدم بهذا المعنى يدعــو الى العودة الى أولى مراحل النمــو الانسانى ، أى أنه يدعو الى الرجعية أو يدعو الى الوقوف والجمود .

واذا جاء بعض المفكرين أو الكتاب أو الفنانين المعبرين بفنهم ، وجوز

التقدم فى الفكر على **انه اهدار الأحكام السابقة وتقديرات الأشياء التى قدرها وحكم بها الانسان فى عصر مضى ، ثم الى استئناف أحكام وتقديرات أخرى** — فهو يدعو الانسان الى عدم الاستمرار فى سير التفكير ، ويطلب منه ان يبتدىء حين يجب أن يتابع السير . ولو أنه التزم فى معنى التقدم الفكرى — كما أشير اليه من قبل — انه الفكر الذى يسعى الى الدقة فى الحكم والتقدير ، ويسعى الى طرح الخيال والخداع فيه ، لرأى أن اهدار الأحكام السابقة فى تفكير الانسان كلية لا يساعد على النخل والتمييز ولا على الوقوف على ما هو دقيق من جانب ، وعلى ما هو خيال وخداع من جانب آخر فى تقديرات الأشياء والحكم عليها . ان رعاية ماضى الفكر الانسانى ضرورة لتحديد خطوات التفكير الأخرى بعده ، كالطفولة الانسانية فى ضرورتها لتحديد مرحلة المراهقة بعدها ، ثم مرحلة الرشد الأخيرة ، ولحيوانية الحيوان فى ضرورتها لتمييز الانسان جملة عنها .

خطان متقابلان : خط الى الأمام ، وخط الى الوراء ، والانسان يبتدىء فى تطوره من نقطة الطفولة الانسانية التى تشبه حيوانية الحيوان ، وينتهى فى هذا التطور الى نقطة الرشد الانسانى ، وهو مستوى الانسانية المهذب فى السلوك الدقيق فى الحكم والتفكير ، مما يدفعه الى الرشد الانسانى ، فهو من عوامل التقدم ، وما يشده الى الطفولة الانسانية فهو من عوامل الرجعية ، وما يقف به عن الحركة نحو الأمام أو الى الوراء فهو عامل الجمود .

واذن ليس من مفهوم التقدمية أو التطور شد الانسان الى الحيوانية والتصرف الحيوانى . وليس من مفهوم الرجعية مساعدة الانسان على الرشد الانسانى ، بالسلوك المهذب والتفكير الدقيق .

***

• الروحية والمادية :

وهنا ينتقل بنا الحديث الى **مفهوم الروحية ومفهوم المادية** . فقد شاع منذ القرن الماضى أن مفهوم الروحية يتصل بمفهوم التخلف والرجعية ،

ومفهوم المادية أو الواقعية ينطوى تحت التقدم والتطور . أى أن الروحية صورة من صور الرجعية ، أو عامل لا يساعد على السير بالانسان الى الأمام . وأمام الانسان هو السير الى نهاية تطوره ، وهو الرشد الانسانى . ووراء الانسان وخلفه مرحلة الطفولة الانسانية التى ابتدأ منها السير فى حركته . فهل الروحية صورة من صور الرجعية أو عامل دافع الى الانتكاس نحو الوراء ؟ وهل المادية صورة من صور التقدم أو عامل من عوامل الدفع نحو الأمام أو نحو الرشد الانسانى ؟

وقبل شيوع الفكر المادى وسيطرة المادية على التوجيه فى القرن التاسع عشر سبقتها الروحية وسيطرت قرونا على التوجيه . فهل اعتبار الروحية عاملا من عوامل الرجعية ، واعتبار المادية عاملا من عوامل التقدم صورة من مكافحة المادية اللاحقة والسابقة ، أم أن مفهوم الروحية ومفهوم المادية يوحى بما أشيع الآن ونسبب الى كل منهما .

الروحية فى أصل وضعها نسبة الى الروح ، وهى الموجود الذى يدرك بالتصور ولا يدرك على سبيل الاستقلال بالحواس . **والمادية فى أصل وضعها أيضا نسبة الى المادة** ، وهى الموجود الذى يدرك باحدى الحواس .

ثم تطور مفهوم الروحية فشمل **المثل** ، **والقيم** ، **والمبادىء** . لأن من شأنها أن لا تدرك بالحواس « فالعدل ، والرحمة ، والتعاون ، والخير ، والبر » أمثال ، مثل وقيم ومبادىء ، وهى بالتالى تندرج تحت مفهوم الروحية ، لأنها لا تدرك بالحواس ، والدين نفسه روحى لأنه جملة من المثل والقيم والمبادىء ، ولأن مصدره وهو الوحى الالهى لا يدرك بالحواس .

وتطور أيضا مفهوم المادية وأصبح يتناول ما خضع لتجربة الانسان وملاحظته ، وعندئذ ادعت المادية أنها صنو الواقعية نسبة الى الواقع الذى لا ينكر ولا يكذب »

وبهذا التطور لمفهومى الروحية والمادية اتسع التقابل بينهما ، واتسعت الفجوة فى التوجيه القائم عليها . فالروحية — المثالية أو الدين — تدعو الى المثل والمبادىء أى تدعو الانسان الى أن يوجه سعيه فى الحياة نحو المثل

والمبادىء . والمثل والمبادىء هى المعانى الانسانية التامة التى تتجاوز الأشخاص كأشخاص . واذا عرفنا أن أخص مظاهر الطفولة فى الانسان هو الارتباط بالشخص — وبالذات فى السعى والادراك ، وأن أخص مظاهر الرشد الانسانى هو السمو فى السعى والادراك عن محيط الشخص والذات — عرف أن الدعوة الى المثل والمبادىء دعوة الى الرشد الانسانى .

ان صاحب **الطفولة الانســانية** لا يدرك للغير مكانا معه فى الوجود ، ولا يتصور له حرمة ، ولا يعنى أنه له حق فى الحياة والعيش ، ولذا لا يدرك قيما ولا مبادىء لا يدرك أن هناك عدلا معناه التوازن بينــه وبين غيره فى الحياة ، ولا يدرك أن هناك خيرا معناه المنح للغير بلا مقابل ، المنح من الصحة والجاه والمال والمعرفة للغير دون أن يكون هناك مقابل لما يمنح ، ولا يدرك أن هناك مجتمعا يضمه وغيره ، ويطلب منه كما يطلب من غيره ويرعاه كما يرعى غيره .

وصاحب **الرشد الانسانى** هو الذى أدرك القيم والمثل والمبادىء ، وهو الذى يسعى اليها . هو الذى أدرك قيم الحياة ، أدرك قيمة التضحية « وقيمة البذل » وقيمة « المعاونة » وقيمة « الخير » هو الذى أدرك « الأعلى » فوق ذلك وهو « الله » . ان القيم والمثل والمبــادى . تتمثل فى « التنــازل » أو فى « المنح والاعطاء » فالمضحى متنازل ومانح ، والباذل متنازل ومانح ، والمعــاون متنازل ومانح والخير متنازل ومانح . والله خالق فهو أعظم معط ومانح .

وأما المادية أو الواقعية فهى تدعو الى الايمان بالشخص والمحس ، تدعو الى الاستمتاع بالوجود الشخصى ، وبما هو محس ، تدعو الى انكار القيم والمثل والمبادىء ، تدعو الى عدم التنازل وعدم المنح والاعطاء بلا مقابل ، ولذا تنكر الخالق . لأنها لا تتصور الا محسوسا يتبادل النفع ، والله **« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »** (1) ، وهو الرحمن الرحيم .

بهذا تحرص المادية على أن لا يلازم الانسان طفولته الانسانية ، تحثه

---

(1) الأنعام ١٠٣ .

على الاستمتاع بالصبغة المادية دون حرج من شعور بمثل أو مبادىء وقيم ، ودون خوف من خالق له الأولى والآخرة ».

وهنا نجد **دعوة الروحية ليست دعوة الى الانتكاس** ، وليست دفعا بالانسان الى الوراء ، وهو مرحلة الطفولة الانسانية ، بل هى دفع الى الأمام ، الى رشد الانسان وكماله وتمام تطوره ، كما نجد دعوة المادية ليست دعوة الى التقدم والتطور ، بل على العكس هى دعوة الى الطفولة الانسانة ، دعوة الى الحيوانية فى الانسان ، ودعوة الى اهمال الخصيصة التى تميزه عن الحيوان ، وهى مستوى الانسانية . اذ مستوى الانسانية قيمة من القيم لا يحس ، وهى لا تؤمن بقيمة ما ».

واذن ما توصف به الروحية من أنها رجعية ، وما توصف به المادية من أنها تقدمية أغفل تاريخ كل من الروحية والمادية ، وحدد مفهوم كليهما من رغبات خاصة ، تبعد هذا التحديد عن أن يستخدم فى توجيه صحيح لمجتمع يريد أن ينهض أو يستمر فى النهوض والتقدم ».

***

● **الحرية والكبت :**

وكذا ما يتصل بالمفاهيم التى يجب أن تحدد أولا : مفهوما « **الحرية والكبت** » . فقد برزت منذ أعقاب الحرب العالمية الأخيرة دعوة قوية الى الحرية ودعاية سيئة ضد « الكبت » . وصاحب فى الشرق دعوة الحرية الدعوة الى تحرير المرأة . وجعلت الحرية مظهرا من مظاهر التقدم والتطور ، كما جعل الكبت من مظاهر الرجعية والتخلف . ونسب الى المادية أنها تدعو الى الحرية ، كما نسب الى الروحية أنها بجانب الكبت . فما معنى الحرية ومفهومها . وما معنى الكبت ومفهومه ؟

الحرية هى الانطلاق فى حدود طاقة الانسان . الانطلاق فى الرأى والاعتقاد فى القول ، وفى الفعل ، وفى الاتصال بالغير . والكبت هو الحد من هذا الانطلاق ، حد فى الرأى والاعتقاد ، والقول ، والفعل ، والاتصال بالغير .

نفهم ان المادية تدعو الى حرية ، ونفهم ايضا أن الروحية تدعو الى الحد وعدم الانطلاق ، ولكن لا نفهم أن الحرية بهذا المعنى مظهر من مظاهر التقدم ، الذى هو رقى الانسان نحو مستوى الرشد الانسانى .

نفهم أن المادية تدعو الى الانطلاق ، لأنها تنكر القيم والمثل والمبادىء ، وتؤمن بالفردية والأنانية التى هى أخص مظاهر الطفولة الانسانية ، ونفهم أن الروحية تدعو الى الحد وعدم الانطلاق ، لأنها تدفع الانسان نحو المستوى الانسانى الرفيع وهو مستوى الرشد . وفى هذا المستوى يقر الرشيد بوجود غيره ، ويؤمن بالقيم والمبادىء التى تجعل منه ومن غيره وحدة فى الترابط والانسجام ، والاقرار بالغير مع الايمان بوجوب الانسجام معه يجعل حرية الفرد فى حدود مصلحة الغير . فللفرد أن يرى ، ويعتقد ويقول ، ويفعل ، ويتصل بالغير ، ولكن لا على الاطلاق ، بل بما يصون حرمة الغير ويحفظ وجوده .

والشىء الذى لا نفهمه بعــد ذلك أن تكــون الحرية بمعنى الانطلاق مظهرا للتقدم والتطور . اى تقدم واى تطور ؟ تقدم الانسان وتطــوره بالمعنى التاريخى لمفهومه يأبى هذا الانطلاق ، أما التقــدم بمعنى العودة الى حيوانية الانسان وحدها والى عهــد الطفولة الانسانية ــ كما يريــده البعض ــ فمن لوازمه هذا الانطلاق . والتعبير الصحيح عنه ساعتئذ هو الفوضى أو الحيوانية وليست الحرية ، كما أن التعبير الصحيح عن الحد من الانطلاق الذى تدعو اليه الروحية هو التنظيم وليس الكبت .

ليس هناك مجتمع انسانى بالمعنى المفهوم من كلمة مجتمع الا ومن لوازمه النقيد والتحديد ، اذ طبيعة اى مجتمع هى فى تنظيم عــــلاقات أفراده بعضهم ببعض ، هى علاقات تتمثل فى أداء واجبات واعطاء حقوق . والمفهوم الواقعى للمجتمع الانسانى هو تنظيم « الاعطاء للغير » . وطالما هناك اعطاء الى الغير فهناك قيود تحد من انطلاق الفرد ، وهى القيود التى تجعله يحد من أنانيته ليعطى غيره . اذ لو ترك للأنانية سبيلها لما رأى الفرد غيره ، فضلا عن أن يقف قبله فيمد اليه يده وساعده .

أما تحرير المرأة ــ الذى اقترنت الدعوة اليه بالدعوة القوية الى الحرية، عقب الحرب العالمية الأولى ــ كمظهر من مظاهر التقدم ، فيصح أن يعد من

هذه المظاهر لو قصد فى مفهومه الى تخليص خط سير الانسان نحو المستوى الرفيع من العقبات التى تقف بالمرأة عن السير فيه كالاعتقاد بالخرافات والتمسك بالتقاليد المظلمة . وبذلك تسير مهذبة فى سلوكها ودقيقة فى أحكامها وتقييمها للأشياء ، ولكن لو قصد به معنى الانطلاق الذى هو للطفولة الانسانية فمفهومه عندئذ العودة بالمرأة الى الوراء . واذن الدعوة الى تحرير المرأة دعوة بها الى الرجعية والتخلف ، قصد بها أن تكون موضوعا ميسرا للاستمتاع كأى موضوع آخر من موضوعات الطبيعة المشاهدة .

***

● الخرافة والتقاليد :

وكذا الخرافة والتقاليد من المفاهيم التى يجب أن تحدد أولا ، والا أسىء استخدامها فى التوجيه . ان **مفهوم الخرافة** بحسب تاريخها يرجع الى الاعتقاد فيما لا ينفع ولا يضر ، ولا يفهم من منطق بشرى سليم . وهذا المفهوم من غير شك مظهر للرجعية ، وضد التقدمية والتطور ، ولكن اذا قصدنا بالخرافة المعانى الروحية أو مبادىء الدين وتعاليمه ، فقد رأينا أن الدعوة الى المبادىء والقيم باسم الروحية أو باسم الدين أو باسم الانسانية هى دعوة الى الرشد الانسانى ودعوة الى المستوى الرفيع من مستويات الانسانية .

أما **التقاليد** ، وهى جملة العادات التى لمجتمع معين ، فقد تكون تأصلت فى هذا المجتمع وقامت فيه على أساس من القيم والمثل التى يسعى الى تحقيقها . وعندئذ لا يكون مفهومها معنى مناوئا للتقدمية . وقد تكون تسللت اليه من مجتمع آخر ودعاه الى قبولها انحطاط المستوى القائم وضعفه عن دفعها من جديد ، وعندئذ فهى كالخرافة فى مدلولها وآثارها .

***

● ضد الدين :

ان هذه المفاهيم التى استعرضناها حتى الآن ، فيما يدور فى تفكيرنا العام ، تنقسم الى مجموعتين متقابلتين . المجموعة الأولى تتناول ، التقدمية

التطور — الواقعية — الحرية — تحرير المرأة . والمجموعة الثانية تتضمن : الروحية والدين — الرجعية والجمود — الخرافة والتقاليد — الكبت . فالحديث اذا ابتدأ عن التقدمية مثلا ينساق الى التطور ، والى الواقعية ، والحرية ، وتحرير المرأة . فهى عبارات فى سلسلة واحدة من التفكير ، وتنبثق من أصل واحـد فى الاتجاه والتوجيه . وأى حديث عن مفهوم منها ينجر الى البقية فى سلسلتها .

وكذلك الحديث اذا اشتبك مع الروحية تراه لا يترك الدين ، والرجعية والجمود ، والخرافة والتقاليد ، والكبت دون أن يشـتبك معها كذلك . لأنه يراد بها تعبيرات مختلفة لفكر واحد . ويقصد بالاشتباك مع واحدة منها دفع هذه الفكرة من أساسها أو على الأقل يقصد الغض منها .

ثم اذا أضيف الى مفاهيم المجموعة الأولى ، وهى التقدمية .. بريق الشيء المحبب الى النفوس ، يضاف الى مفاهيم المجموعة الثانية لون الكراهية والبغض ، وهذه الاضافة — هنا وهناك — لا تحملها ذوات المفاهيم على انها شيء أصيل فيها . لأن المفاهيم — وهى تحديدات الفكر — ليس من شأنها أن تكون ذا طابع وجدانى خاص ، وليس من خصائصها أن تصور عاطفية معينة . وانما هـذه الاضافة أوحى بها ما يسـمى « بتداعى المعانى » . فاذا ما عرض فى الكتابة والنقد بشيء على أنه مرغوب فيه أو مرغوب عنه ، وتكرر ذلك مرارا — ارتبط فى النفس الانسانية بمـا يثير الرغبة فيه أو الرغبة عنه . واذا ذكر المفهوم بعد ذلك لانسـان ما ، تداعت فى نفسـه الرغبة فيه أو الرغبة عنه . اثر ذكره .

فأى شيء فى عصرنا الحديث حسن للنفس مفهوم التقدمية وما يلحقها من مفاهيم أخر ، وأى شيء بغض للنفس مفهوم الروحية وما يتحصل بها من مفاهيم محمولة عليها ؟ . ان ذلك اثر من آثار الدعوة الى قبول التقدمية ورفض الروحية من جانب آخر . وهى دعوة لم تسند الى القول وحده ، والى التبشير به فى جانب التقدمية ، والتنفير عن طريقه من الروحيـة . بل شاب القول — لأصـحاب دعوة التقدمية فى التوجيه — **تغيير عملى فى مجال الحضارة الصـناعية والفكر العلمى الآلى أو الميكانيكى** ، غير بدوره مستوى الحياة المادية لشعوب أصحاب هذه الدعوة . واختلط بذلك التقدير

على العقل العادى الذى لا يفصل بين القيم المختلفة . وأصبح منطق هذا العقل العادى هو : ان رفع مستوى الحياة المادية كان نتيجة للانقلاب فى مجال الصناعة ، واثرا لنجاح الفكر العقلى الميكانيكى . فما يدعو اليه أرباب هذه الصناعة وأصحاب هذا الفكر العلمى الميكانيكى من التقدمية فى التطور من جانب ، وطرح الروحية من جانب آخر ، مقبول ترتاح اليه النفس ، بل تندفع اليه وتنقاد له . ولم يقف هذا العقل العادى بعد على الضرورة اللازمة التى يجب توافرها بين قضايا هذا المنطق حتى يكون اقتناعه بتنميته اقتناعا قائما على الزام عقلى .

التقدمية التى يدعو اليها أصحاب الانقلاب الصناعى فى مجال الحضارة الصناعية ليست فى التقدمية والتطور فى الصناعة ولا فى الفكر العلمى الرياضى الميكانيكى ، وانما هى التقدمية فى سلوك الانسان وفى تصوره لمثل الحياة وقيمتها ، **وقد رأيناهم يريدون بالتقدمية ما يراد واقعيا من مفهوم الرجعية ، وهو الارتداد الى الوراء فى مرحلة الطفولة الانسانية وهى المرحلة التى تغلب عليها الأنانية والمادية الحسية ، والنفعية المتبادلة وعدم الاقرار بالمثل فى العلاقات الانسانية .**

فالانقلاب الصناعى مجاله الحضارة المادية الصناعية مجاله الصلب والحديد والقوة المادية المحركة ، والفكر العلمى الرياضى الميكانيكى مجاله الآلة واستخدامها والانتقال بها من طور الى طور ، على أساس من التجارب المادية والتحليل الكيميائى ، ورصد ذلك فى أرقام ورسوم بيانية ، وليس بضرورى أن يكون القائمون على هذه الحضارة الصناعية أو أن يكون علماء الكيمياء والتجربة والرياضة أنفسهم — فضلا عن شعوبهم التى تتبعهم — من أصحاب الاستقامة فى السلوك الانسانى ، ومن الذين تجاوزوا حد الأنانية ، وأقروا بالقيم والمبادىء والمثل وهى الأسس اللازمة لمجتمع انسانى سليم متعاون بدفع ذاتى ، لا يرهبه القانون والخشية من السلطة القائمة .

فالتقدم الصناعى قائم حتما على التقدم العلمى الميكانيكى ، وكلاهما ليس بلازم أن يكون نتيجة للتقدم فى السلوك الانسانى وتصور القيم والمبادىء والمثل . قد يكون هناك انسانى بدائى يركب الناقة ويقتات من

ضرعها مباشرة ولا يعرف الآلة : كيف تدار ، وبم تركب — ومع ذلك هو انسان متقدم فى سلوكه وفى علاقاته بغيره فى مجتمعه .

قد كان « محمد بن عبد الله » أميا ، نشأ فى بداوة الصحراء ، ومع ذلك كان مثلا أعلا للانسان صاحب المستوى الانسانى الرفيع ، لا .. لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لأنه أخذ نفسه منذ الصغر عن طريق الايمان والارادة بالترفع عن الدنايا والعطف والحنو على الغير ، حتى عرف بالايثارى . والايثار هو الضرب الرفيع فى الانسانية ، لأنه ينشأ عن هجر ما للأنانية من نزعات ، مؤثرا أن يستجيب لحاجة الغير دونها .

ولم يكن مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم مجتمعا ذا انقلاب صناعى ، ولم تكن لهم العقلية العلمية الرياضية الميكانيكية — ومع ذلك كان مجتمعهم نموذجا للمجتمع الانسانى المهذب للتعاون المتماسك . تتوحده كلمة الله نحو التضحية وبذل المال والولد . والله جل جلاله ليس عملة يتبادل واياها المنفعة المادية ، ولكنه الرب والمعبود الذى تطيب بلقياه النفس وتضرع اليه فى الأزمات والكروب .

ومن جانب آخر ، المجتمع الغربى الحديث مجتمع ذو انقلاب صناعى ، وتقدم فى الفكر العلمى الرياضى الميكانيكى ، ومع ذلك هو مجتمع مفكك تغلب عليه الأنانية والفردية ، ويسوده القلق النفسى وعدم الاطمئنان ، ليس له من هدف الا الغلبة والسيطرة على الشعوب والأفراد معا ، لا يعرف قيما ، ولا مثلا ، ولا مبادىء ولا يعرف ربا خالقا لهذا الكون — وان تحدث عنه — فى سبيل السيطرة والغلبة . أثار حربا عالمية مرتين فى نصف قرن . وسيثير الثالثة وربما لا تكون الأخيرة فى النصف الثانى من قرننا العشرين .

وانن تقدمية الصناعة شىء وتقدمية الأخلاق والمستوى الانسانى شىء آخر . تقدمية العلم الرياضى الميكانيكى ليست هى تقدمية البشرية فى التوجيه والاستقامة .

ولكن الخلط بين القيم لدى العقل المادى يدفعه الى قبول الدعوة التى ينشط لها أرباب الحضارة الصناعية المادية ، وهى الدعوة الى التقدمية

والتطور البشرى . وهى كما عرفنا أجدر بأن تكون رجعية وارتدادا . واذا قبلت من العقل العادى فتقبل على أنها شىء محبب الى النفس مرغوب فيه . واذا قبلت من النفس على هذا النحو فالروحية أو الدين — وقد وصف بالرجعية والجمود والخرافة — ليس لهما مكان فى النفس الا مكان المبغوض المكروه .

وهنا لكى يبعد البغض والكره عن بعض المفاهيم من جانب ، وينفصل القبول والاستحسان عن البعض من جانب آخر — يجب أن تحدد المفاهيم أولا التى تستخدم فى توجيه الانسان والمجتمع الانسانى .

ان مجتمعنا الشرق الاسلامى لم يصبح بعد مجتمعا ذا حضارة صناعية وذا تفكير عملى رياضى ميكانيكى ، فلو أضفنا الى ذلك توجيها تقدميا أى ارتدادا الى الطفولة الانسانية والى الجانب الحيوانى فيها لكان مجتمعا عديم القيمة فى كل جانب .

ان مجتمعنا الشرقى الاسلامى يريد ان ينهض ، فلابد أن يقوى فيه الوعى بالنهضة . ولا سبيل الى ذلك الا عن طريق الروحية الاسلامية الواعية ، وهى روحية التعاون والحد من الانانية ، وروحية المثل والمبادىء العليا ، وهى مبادىء العدل والاحسان والخير ، وروحية الدفاع عن المجتمع ، وهى روحية الجهاد ورد الاعتداء وروحية السلم مع حفظ الكرامة الذاتية والاستقلال فى الأهداف وفى مقاييس الحياة ، وتلك رسالة الاسلام .

اننا ندعو الى التقدم فى الصناعة ، والتقدم فى العلم الرياضى الميكانيكى ، والتقدم فى العلم التجريبى ، ولكن لا ندعو الى الارتداد الى الحيوانية باسم التقدم والتطور . نريد تقدما فى المستوى البشرى ، وتقدما فى مستوى غذائه وكسائه . ولكن لا نريد أن نعتقد المستوى البشرى المهذب فى سبيل ملء البطون وتدفئة البيوت . اننا لو وصلنا الى مستوى بشرى مهذب رفيع لاصبحنا اكمل حرية فى السعى لبناء مجتمع متوازن متعاون ، اكمل حرية من رق الفقر والجهل والمرض .

اننا نمقت الرجعية والخرافة والجمود ونحاربها ولكن لا نطلقها على الدين ولا نجعل بينها وبين الاسلام صلة لأن الاسلام دين المستوى الانسانى الكامل ، فى السلوك والتصوير .

لسنا باسلامنا رجعيين ، وانما نحن به تقدميون لو وعيناه كما وعاه اسلافنا واخذنا انفسنا به فى حياتنا العملية ، ولو كان للاسلام وتعاليمه فى حياتنا ما يجب ان يكون لكنا فى غنى عن الفلسفات المعاصرة وتنازعها وصراعها ، ولسلم مجتمعنا من الفجوات الواسعة والاضطرابات والبلبلة لانه بالاسلام يجد التساند والتمسك وفى الاسلام يجد الدواء والعلاج يقدمه الى كل مريض أو مأزوم فى الشرق أو فى الغرب على السواء . ويوم يرتفع صوت الاسلام سيخرس كل صوت آخر لان صوته هو صوت الحق ، والخير ، والسلام والايجابية البنائية ، ومبادئه هى مبادىء البشرية الفاضلة المهذبة الواعية .



الفصل الثانى

الفلسفات المعاصرة

- الشرق والفلسفة المعاصرة
- لا شأن للفلسفة المعاصرة بالتربية الأخلاقية
- الاسلام (عناية الاسلام بالعلم)
- عناية الاسلام بتوازن المجتمع
- عناية الاسلام بالضمير
- الخلقية الدينية أو الضمير الدينى
- مضمون الرسالة الاسلامية
- الاحتفاظ بشخصية المجتمع عند الاعتداء عليه
- الروحية المعاصرة
- لماذا وجدت الفلسفة المعاصرة

الفلســفات المعــاصرة

● **الشرق والفلسفة المعاصرة :**

الفلسفة المعاصرة السائدة فى الشرق الآن ليست فلسفة أصيلة فيه ، ولا منبثقة من حاجات وضرورات الحياة فيه . هى فلسفة أوجدها الغرب ودعت اليها ظروفه الخاصة ، وبعد ما وجدت فى الغرب قسمت مجتمعه الى مجتمعات ، وأثارت فيه بين مجتمعاته حربين عالميتين ، وتوشك أن تثير الثالثة ، واذا وقعت فلا منجاة للبشرية كلها من آثارها المدمرة .

الفلسفة المعاصرة فى الشرق **هى فلسفة الواقعية أو المادية** ، وجدت فى **أوروبا** فى القرن التاسع عشر ، وازدهرت فى النصف الثانى منه ، وابتدات تثمر ثمرتها فى محيط التوجيه الانسانى فى النصف الأول من قرننا العشرين . وهى وان كانت ذات سيادة على التفكير الا انها لم تسلم لها هذه السيادة تماما بدون مقاومة من التفكير الانسانى نفسه ، ولكن من زاوية أخرى غير الزاوية التى تطل منها — كما سيتضح بعد .

والفلسفة الواقعية أو المادية هى الفلســفة التى **تغفل شأن العقل واستقلاله** ، كمصدر لمعرفة موثوق بها ، كما تغفل شأن التراث الثقافى الماضى الذى كونته تعاليم الدين ، أو قام على أساس من البحث النظرى الصرف ، وفى مقابل اغفال ما تغفل من شأن العقل وتعاليم الدين معـا ، **تعنى بالحس وتثق بالحواس كل الثقة** فى تحصـيل المعرفة الانســانية . وموضوع الحواس هو المشاهد أو ما هو « واقع » فى عالم الانسان ، وما هو مادى فيه . ومعرفة الحواس هى اذن معرفة الواقع أو المعرفة المادية ، والفلسفة الواقعية هى الفلسفة الحسية أو المادية . تقف بالمعرفة عند حد ما تدركه العين وتسمعه الأذن وتلمسه الأيدى وتحس به بقية الحواس . وتثق بالمعرفة الحسية ثقة قوية اذا كانت مع ذلك وليدة الاختبار والتجربة . وتزداد هــذه الثقة اذا كان الاختبار والتجربة قائمين على اســاس من استخدام المقاييس الآلية الدقيقة والعمليات الرياضية البحتة ، وروعى فيها اختلاف الظروف العديدة التى من شأنها أن يكون لها تأثير .

والمعرفة الناشئة عن استخدام المقاييس الآلية والعمليات الرياضية البحتة ، هي التى اخذت اسم « العلم » فى الوقت المعاصر ، وهى التى تدعو اليها الفلسفة الواقعية أو الفلسفة المادية ، على أنها الشيء الذى يجب أن يؤمن به الانسان المعاصر ، ويتخذه الها بدلا من اله الأديان فى الماضى . ولذا يصح أن يقال : ان الفلسفة المعاصرة هى فلسفة العلم وفلسفة الدعوة اليه .

والمعرفة التجريبية التى اخذت مفهوم العلم ساعدت على تحسين ما اخترعه الانسان فيما مضى من آلة ، كما عاونت الانسان المعاصر على اختراع أنواع جديدة منها ، فى مجال الصناعات المختلفة . وتقدمت بذلك الصناعة ، وعن طريق التقدم الصناعى ارتفع مستوى الحضارة المادية للانسان . وبارتفاع مستوى الحضارة المادية ارتفع شأن العلم ، وارتفعت قيمة الفلسفة المعاصرة بالتالى . وبالارتباط الوثيق بين قيمة الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة الواقعية ، وقيمة العلم فى مجال الصناعة ، وقيمة ارتفاع مستوى الحضارة المادية عن طريق استخدام العلم فى تحسين الآلة أو اختراعها — خلا مكان التقدير من قيمة الأخلاق والمستوى الانسانى المهذب ، وركزت العناية كلها على التقدم فى النظرة الواقعية والبحث العلمى الرياضى التجريبى الآلى لرفع مستوى الحضارة المادية ، دون اقامة وزن للسلوك الأخلاقى أو للتهذيب فى تصرف الانسان .

وبهذا لم تغفل الفلسفة المعاصرة القيم الأخلاقية والسلوكية فحسب ، بل شجعت على التخلص من المعايير التى وضعها المجتمع الانسانى فيما قبل القرن التاسع عشر للسلوك الأخلاقى وتصرف المجتمع الرفيع . وطالبت بالتقدمية وبالنظرة الواقعية فى ضوابط القيم الأخلاقية ومقاييسها . وقصدت بذلك الى أن المقاييس الاخلاقية يجب الا يكون لها استقرار ذاتى ولا ثبات مستقل ، وانما يجب أن تكون تابعة للنظرة الواقعية والتقدم العلمى الصناعى . ومعنى ذلك أنه كلما تقدم المجتمع تقدما علميا وتقدم فى مجال الصناعات وامعن فى النظرة الواقعية — كلما كان سلوكه الانسانى فى نظر الفلسفة المعاصرة أوفق وأمثل ، وكلما كان أدخل فى معنى التقدمية والتطور .

وبهذا تبعت القيم الأخلاقية النظرة الواقعية ، وهى أساس الفلسفة المعاصرة ، ومالت هذه الفلسفة الى أن تعتبر الانسان آلة أو شبه آلة يخضع للتقدم العلمى والتطور الصناعى : على معنى أنه كلما كان الانسان اكثر اختراعا للآلة ، وأكثر تجاربا فى البحث العلمى — كلما كان ذا مستوى انسانى رفيع مهذب ، وكلما كان ذا خلقية فردية واجتماعية عاصمة من الزلل فى التصرف ، أو من استهداف الشر فى المجتمع الانسانى .

ومنطق هذا الثالوث : النظرة الواقعية — العلم التجريبى الميكانيكى — التطور فى الصناعة — اذن يؤدى حتما الى عدم الرغبة فى الشر وتوجيه كل ما يخترع الانسان لخدمة البشرية ورفاهيتها : ذلك لأنه ربط بين التقدم فى هذه المجالات وتقدم الانسان فى انسانيته . ولكن واقع الأمر أنه لا صلة بين تحكيم النظرة الواقعية ، وتقدم البحث العلمى التجريبى ، وتطور الصناعة من جانب ، وبين تقدم الانسان فى انسانيته من جانب آخر . لأن تقدم الانسان فى انسانيته يتوقف على توجيه ما فيه من طاقات واستعدادات ، كالغرائز والادراك ، توجيها يجعل الانسان نفسه ذا تهذيب وذا تعاون مع غيره فى المجتمع ، وذا مشاركة وجدانية تتحول الى قوة دافعة نحو الخير والاحسان . وتنمية استعدادات الانسان الفطرية الغريزية والشعورية ، وتوجيهها هذا التوجيه يرتبط فحسب بتهذيب الغرائز أولا ، وابعاد العواطف عن الأحكام والتقديرات ثانيا . وتهذيب الغرائز انما يكون عن طريق كسب العادات الحسنة ، والبعد عن الحزبية والعواطف فى الأحكام . والدقة فى التقدير تكون بالتروى وبانتزاع النفس من شهواتها ورغباتها الخاصة . وللعادات الحسنة المكتسبة لها دخل كبير فى ابعاد رغبات الانسان الخاصة فى مجال حكمه وتقديره .

ولا شأن للنظرة الواقعية المادية بكسب العادات الحسنة ، كما انه لا شأن للتقدم فى اختراع الآلة وتطور الصناعة فى ابعاد العواطف والانفعالات فى أحكام الانسان وتقديره ، ولذلك يبقى الفرق واضحا بين التربية والعلم ، أو بين التقدم العلمى والصناعى فى مجتمع ما ، وحسن توجيهه على نمط انسانى رفيع .

• **لا شأن للفلسفة المعاصرة بالتربية الإخلاقية :**

واذا كانت الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة الواقعية المادية وما لها من صلة بالعلم والتقدم الصناعى ، لا شأن لها بالتربية كتوجيه للانسان فى معنى انسانيته — فانه غير **مأمون من الانسان فى المجتمع صاحب الفلسفة المعاصرة ، أن يستخدم تقدمه فى البحث العلمى وتطوره فى مجال الصناعة لابادة الانسان واهلاكه ، بدلا** من وضعها فى رفع مستواه ورفاهيته ، والمجتمعان الحديثان : الاشتراكى والرأسمالى ، وكلاهما يقدر الفلسفة المعاصرة قدرها ويزهوبالعلم كمايزهو بالصناعة — لا يرى العالم منهما اليوم، وسوف لا يرى منهما فى غد ، الا تسخير البحوث العلمية والتطور الصناعى فى سبيل الاعداد للاهلاك والتدمير . وما ينفق فى كلا المجتمعين على البحث العلمى والتطور الصناعى للتدمير والاهلاك ، كان يمكن أن يعود على البشرية جميعا ، وعلى أفراد المجتمع الانسانى كله بفائدة مادية فى رفع مستواه ، بجانب فائدة الهدوء والاطمئنان .. والشعور بالأخوة فى الانسانية.

هذان المجتمعان مهددان بالفناء .. وكلاهما يهدد الآخر ، وهما يهددان غيرهما بالافناء . وليست هناك قوة أخرى كابحة أو موجهة للعلم والتطور فى الصناعة وجهة الخير العام .

ونخلص من هذا الى أن الفلسفة المعاصرة احرزت نجاحا فى التقدم العلمى ونجاحا آخر لم يعرفه التاريخ من قبل فى تقدم الصناعة ولكنها لم تحرز أى نجاح فى تقدم الأخلاق والسلوك الانسانى ، ولا فى ايجاد الضمير، الذى يعتبر القوة الذاتية فى الانسان التى تدفعه الى استخدام امكانياته وطاقاته فى سبيل الخير والابتعاد عن الشر . بل ربما لا تعرف هذه الفلسفة فارقا بين الشر والخير . لأن الشر والخير من المعانى الأخلاقية التى لا تقر ثباتها وبقائها ، وانما تنظر اليهما كشىء فرعى وتابع لما ينشأ عن التقدم العلمى أو التطور الصناعى .

أخفقت الفلسفة المعاصرة اذن فى خلق توجيه أخلاقى ، وفى خلق خلقية أو ضمير يدفع الانسانية نحو العمل الانسانى ، أى نحو الأخوة والتعامل فى الانسانية ، أو نحو تقدير الانسان . وهذا هو النقص الذى يلازم هذه الفلسفة . وفى واقع الأمر ان هذا النقص كان نتيجة لغلو الفلسفة فى تقييم النظرة الواقعية والتجارب الآلية والرياضية . لأن هذا الغلو ركز القيمة كل القيمة فيما يدرك بالحس وينشأ عن التجارب المادية كما سبق أن ذكر ،

ويلغى كل اعتبار لمعرفة أو توجيه لا يخضع لتجربة الانسان المادية . ولذا الغى اعتبار المثل والقيم الرفيعة فى حياة الانسان كما الغى رسالة الدين فى توجيه الناس نحـو الله ، ولو انها أدركت أن الله هو مركز الكمال فى الوجود ، وأن السعى اليه هو سعى نحو الكمال ، وان عبادته هى تقرب من الكمال فى تصرف الانسان لأدركت أن عبادة الله لا تعوق النظرة الواقعية ولا تعوق تقدم العلم ولا التطور الصناعى ، انما هى شىء مستقل بذاته يأتى بما لا تأتى به الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة المـادية الواقعية وحدها .

والمجتمعان الاشتراكى والرأسمالى ، وكلاهما يؤمن باله العلم واله الصناعة وكلاهما ينكر اله الناس ورب الناس جميعا — وان كان احدهما يعلن هنا الانكار فى غير خفية والثانى ينكره بالتطبيق لا بالقول — فوق انهما فقدا الضمير كقوة ذاتية دافعة للانسان فى مجال التقدير والتقييم — فان أحدهما يفترق عن الآخر بأن الفرد فى المجتمع الاشتراكى يدفع الى الانتاج بعامل الخوف والرهبة من سلطة القانون ، بينما الفرد فى المجتمع الرأسمالى يدفع الى الانتاج بعامل الجشع والطمع والأنانية . اذ المجتمع الأول — وقد سلب أفراده ما يملكون ولم يجعل من أهدافهم تحصيل الملك أو تنميته — لم يكن له بد من أن يدفع أفراده الى العمل والانتاج بسلطة الاقناع ، وبجانبها سلطة القانون . ولأن المجتمع الثانى ، وهو المجتمع الرأسمالى — لم يضع حدودا لحرية الفرد فيما يملك وفيما يتصرف من أجل تحصـيل الملك وتنميته ، بل قد شجع على الفردية واستغلال الأنانية .

ولذا بدا فى المجتمع الاشتراكى أن هناك تعادلا بين الافراد ، بينما بدا فى المجتمع الرأسمالى عدم التوازن والتعادل . وما بدا من تعادل فى المجتمع الاشتراكى لا يعبر عن حقيقة ، لأن أفراده جميعا لا يملكون حتى يقال ان هناك تعادلا أو عدم تعادل وليست لهم حرية فيما يعملون حتى يقال ان هناك تعادلا أيضا فى مجال حرية العمل . أما طغيان الفجوة بين طبقات المجتمع الرأسمالى فهى تعبر عن حقيقة واقعية فيه ، نتيجة لسيطرة الفردية والأنانية وهنا ترابط المجتمع الاشتراكى ، ترابط مصطنع أو من خارج عن ذوات الأفراد . أما المجتمع الرأسمالى ، وهو المجتمع الأنانى الفردى ، فقلما يكون هناك حديث عن ترابط فيه .

***

الاســــلام

اتضح الآن أن قيمة الفلسفة المعاصرة فى جانب العلم والتطور الصناعى، وليس لها قيمة ما فى جانب الضمير والدفع الذاتى للانسانى . كما تبين انها لم تصل بالمجتمع الاشتراكى الى أن يكون ذا ترابط بالمجتمع الرأسمالى الى تقليل الهوة بين طغيان الرأسمالية واستغلال من ليسوا من أصحاب رؤوس الأموال .

واذن هناك فقدان لضمير الفرد وعدم توازن حقيقى للمجتمع . وهذا وذاك كان من مستلزمات الفلسفة المعاصرة ، أو بعبارة أدق ، كان من مستلزمات الغلو والتطرف فى تقدير النظرة الواقعية ، وتقييم التجــارب الحسية الآلية .

***

● **عناية الاسلام بالعلم :**

أما الاسلام فليس معاديا للعلم ولا للتجربة الحسية الآلية التى يقوم عليها ، وليس معاديا للصناعة ولا للتطور الصناعى . هو يدفع الى الأمرين معا دفعا قويا . يقول الله تعالى : **((قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين))** (١) .. **((قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ...))** (٢) **((هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور))** (٣) .

فحث القرآن الكريم المؤمنين به على اجــراء الاختبــار والامتحان للأحداث الماضية حتى يستخلصوا منها العبرة ، كما حثهم على النظر فى السماء والأرض حتى يقفوا على ما فيهما من قوى وانسجام بينهما ، فيشهدوا بذلك على الخالق الذى خلقهما ، وكما حثهم على السير فى الأرض والتنقيب عما فيها من مصادر الثروة ليضمنوا لأنفسهم الرزق ، بعد أن أخبرهم بأنهم

---

(١) الأنعام : ١١ .　　(٢) يونس : ١٠١ .
(٣) الملك : ١٥ .

ممكنون منها ، وان لهم سيادة عليها . وكل هذا يدفع المؤمن بالاســلام الى أن يختبر القضايا ويجرى من التجارب ما يشاء ليصل الى حكم دقيق كما يدفعه الى احكام النظر ليس فقط وقت نزول القرآن ، وانما عــلى الدوام بعد ذلك وفى كل جيل من أجيال المؤمنين ، الى كشف طبيعة السماء وطبيعة الأرض ، وكما يدفعه الى الاستمرار فى الكشف عن مواطن الرزق فى الأرض وهى عديدة وليست وقفا على الزراعة وحدها ، ولا على الثروة الحيوانية القائمة على ســطح الأرض ، وانما ما فى باطنها قبل ما فوق ظاهرها . هذا ما يقوله القرآن هنا كما يقول فى آية أخرى : ((**وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشــكرون**)) (١) . وكما يقول فى آية أخرى : ((**وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**)) (٢) . فكما جعل للانسان الأرض ذلولا ومكنه منها ، وجعله ذا سيادة عليها ، ينتفع بالسير فوقها والتفتيش عما فى باطنها سخر له البحر وجعله ايضا مصدر ثروة وقوة ، ثروة تعينه على البقاء ، وقوة تعينه على الاستمرار فيه ، وجعله أيضا ذا قوة وبأس عن طريق اعلامه وارشــاده الانسان الى الحديد ، كمادة الصناعة وكرمز لقوة المادية .

***

● عناية الاســلام بالضمير :

الاسلام اذن لا يعادى العلم بمعنى البحث التجريبى ، بمعنى الدقة فى النتائج ، ولا يعادى التطور الصناعى كمصدر لتمكين الانسان وقوته . لا يعادى سيادة الانسان على الأرض اليابسة ، ولا على مائها ولا على هوائها . بل يدفعه كما سبق أن ذكر الى تحقيق هذه السيادة على ذلك دفعا قويا . وانما يعادى شيئا واحدا ، **يعادى الشر ، يعادى الشيطان** . وليس الشيطان الا مصدر الاساءة للانسان ، الاساءة فى صورتها الخفية ، والاســاءة فى صورتها العنيفة ، وهى الابادة والاهلاك . ولذا طلب الخلقية من الانسان بجانب طلبه للسيادة عن طريق البحث فى المعرفة . طلب من الانسان أن يكون ذا خلق وأن يكون ذا اتجاه حسن فى سلوكه .. طلب منه ذلك على أساس أن يكون الدافع اليه هو ذاته وليس أمرا خارجا عنه . ومن هنا

---

(١) النحل : ١٤ .

(٢) الحديد : ٢٥ .

عنى بـ « الضمير » أي بتكوين القوة الخلقية في الانسان . عنى بانشائها وبتنميتها . وذلك عن طريقين : **الطريق الأول تكوين معنى الخشية من الله في نفسه . الطريق الثاني التعود على العمل الحسن ، وهو العمل الخير .**

وفى تكوين معنى الخشية من الله فى نفس الانسان ربط الاعتقاد بالجزاء فى الآخرة بالاعتقاد بالله ، وجعل الايمان بالبعث وبالجزاء بعده أمرا ضروريا لوصف الانسان بأنه مسلم ومؤمن بالله . أما تعويد الانسان بالسلوك المستقيم ، وهو السلوك الخير ، فقد بصر الانسان بما سماه الحلال والحرام ، وبما سماه الواجب والمكلف به . وما طلبه من واجب هو ما فيه تحقيق الخير فى السلوك . وما طلب تركه من حرام هو ما فيه ابعاد للشر أو مكافحة للشيطان . ثم بجانب تنوير الانسان بالحلال والحرام والواجب والمكلف به كانت العبادات . وهى ممارسة الانسان لتجارب خيرة فى حياته تدفعه دفعا عن طريق تكوين العادة الى السلوك الخير المنشود . فالصلاة والصوم والزكاة أنواع من العبادة يمارسها الانسان ليبقى مع الله فى صلته به ، وليبقى مع اخوانه فى المجتمع على صلة بأنهم اخوانه ورفقاؤه ، وبأن تبادل العون أمر مطلوب لا مفر منه .

واذا عنى الاسلام بتكوين الخلقية فى الانسان وبتكوين الضمير الدينى ، وهو القوة القائمة على الخشية من الله ، فانه يعنى بضابط يحول دون أن يتبعه علم الانسان ، وأن تتجه سيادته فى الكون الى الافناء والتخريب . وما يعنى به اذن هو كعاصم يعصم الخير عن أن يشوبه شر . يعصم العلم والسيادة والقوة عن أن تستخدم فى غير صالح البشرية عامة .

ووراء عناية الاسلام بتربية الضمير كضابط لتوجيه الانسان نحو الخير يعنى **باستقرار المجتمع . ويرى هذا الاستقرار في التوازن وفي العدل بين طبقاته . لا يراه فى منع التملك وتحصيل الملكية الفردية ، ولا يراه في طغيان الرأسمالية ، وانما يراه في توجيه غريزة الملك بحيث لا تتحول الى الجشع والطمع والاستغلال** . واذا ما تهذبت غريزة الملكية فأصبح المالك غير جشع وغير طامع عرف حد الملكية نفسيه ولما تقتضيه حاجة غيره ، ووسعت نفسه الى أن يلبى حاجة الغير بفضلة نشاطه في السعى نحو تحصيل الملكية . وهذا معناه أن يعطى ليسد حاجة غيره فى صورة من صور العطاء بعد ما يقف عند الحد الذى تسد به حاجته . ولذا كان فرض الزكاة فى الاسلام كواجب محتم مقدمة لما سماه « الاحسان » . فالنفس اذا تعودت

بحكم الفرض والالزام على التنازل عما تملك فانها تتنازل فيما بعد عما تملك أيضا عن طريق الاختيار والرغبة بدلا من الفرض والالزام . وعندئذ يتحقق الاحسان . واذا أحسنت فى المال فستحسن أيضا فيما تملك من جوانب أخرى ، ستحسن فى العلم ، والجاه ، والقوة ، وتعطى من كل ذلك ما يعين صاحب الحاجة على العلم ، والجاه ، والقوة .

***

● **عناية الاسلام بتوازن المجتمع :**

وهنا يكـــون التعاون فى المجتمع قائما على **اختيار بدلا من الزام** ، ويكون متعدد الجوانب بدلا من جانب واحد . وعندئذ يكون الغنى والفقير متعادلين على معنى أن ليست **هناك فجوة من الشحناء والبغضاء** والحقد والكراهية بين الغنى والفقير .. **والمجتمع الاشتراكى عندما منع** الملكية الفردية وأراد بذلك أن يحول دون البغضاء والكراهية التى يسببها طغيان الرأسمالية ، لم ينزع البغضاء والكراهية من نفوس الأفراد . فقد وجه هذه البغضاء وهذه الكراهية الى النظام الذى فرض عليهم ذلك ، بدلا من أن كانت متجهة من نفس فرد فقير الى فرد غنى ..

ولكن الاسلام عندما يريد أن يحول الالزام الى اختيار ، يحول الزام الاعطاء الى الاختيار فيه ، أى الى الاحسان — عندما يريد ذلك يريد أن ينبثق كل تصرف للفرد من حريته واختياره لا من اكراه وقسره عليه .

وهنا الفرد فى المجتمع الاسلامى فرد حر ، وحر فى تعاونه مع الغير ، وحر فى ازالة الفجوات بينه وبين غيره .. وهذه الحرية ميزة ثالثة للاسلام كنظام بجانب ميزتيه الأخريين السابقتين ، وهما ميزة تكوين الضمير الدينى أو الخلقية الدينية ، وميزة الحث على المعرفة للسيادة والقوة .

واذا قلنا ميزة الاسلام فى حرية الفرد فلأنه **يرى أن الفرد هو القاعدة التى يؤسس عليها المجتمع** ، وليس المجتمع هو الذى يخلق الفرد ، والمجتمع الحر هو اذن الذى يقوم على قاعدة من الأفراد الأحرار المختارين . واذا قلنا ميزة الاسلام فى تربية الضمير الدينى فمعنى ذلك ميزته فى مســـتوى الانسانية . لأن الانسان صاحب الضمير هو ذلك الانسان الذى يفصل بين حق نفسه والواجب عليه لغيره ، ويعرف حد نفسه وحرمة غيره ، ثم لا يتعدى

بما له الى ما لغيره . وذلك هو مستوى السمو أو مستوى النضوج في الانسانية . واذا قلنا ميزته في المعرفة والسيادة فليست المعرفة التي يريدها ولا السيادة التي يتبعها هي المعرفة للافناء ، ولا السيادة للاهلاك ، وانما المعرفة للبناء والسيادة للبقاء .

وشتان بين انسان يتصرف تصرفا منبثقا من حريته الشخصية ، وانسان آخر مدفوع الى العمل بعامل الخوف والرهبة ، كما في المجتمع الاشتراكي ، أو بعامل الجشع والاستغلال كما في المجتمع الرأسمالي ، وشتان بين انسان له مستوى الانسانية في السلوك والتصرف ، وانسان آخر يؤمن بقوة العلم ولا يؤمن بقوة الخلق . ويؤمن بقيمة التطور في الصناعة ولكنه يكفر بهدف الخير ومصلحة المجتمع الانساني كله .

ان الاسلام ليس سلبيا في الحياة . وانما هو نظام للقوة . ولكن فقط القوة المتجهة للخير والنافع .

***

● **الخلقية الدينية أو الضمير الديني :**

اذا كانت الوحدة في الايمان بالله هي هدف المجتمع الاسلامي ، وفي الوقت نفسه هي العامل الأساسي في تكوينه — فان الخلقية الدينية أو الضمير الديني عامل في بقاء هذا المجتمع ، وعامل في تماسكه وتعاونه .

الخلقية الدينية هي استطاعة نفسية تتكون عند المؤمن بالله يصدر عنها تصرفات لها طابع الانسجام مع تعاليم الرسالة التي جاء بها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام ، وهي اذن كما تقوم على الايمان بوحدة الله تقوم أيضا على الايمان برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء فيها ، وهناك عامل آخر في تكوينها يضاف الى هذين العاملين ، وهو الايمان بالجزاء في الآخرة . والايمان بالآخرة ، وما تم فيها من جزاء يبعث الحيوية واليقظة باستمرار في أن تؤدي الخلقية الدينية وظيفتها من العمل طبقا لما آمن به الانسان . وفروع الايمان الثلاثة : الايمان بوحدة الله والايمان بالرسول وبما انزل عليه من وحي هو مضمون رسالته ، والايمان باليوم الآخر وما يقع فيه من جزاءات تذكرها فاتحة البقرة ، في قوله تعالى : ((**الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة**

ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخــرة هــم يوقنون . اولئك على هــدى من ربهم ، واولئك هم المفلحون » (١) .

فوصف القرآن هنا الذين يؤمنون بهذه الانواع الثلاثة بأنهم هم المتقون وهم الذين على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون الناجحون .

فالايمان بالغيب فى مقدمته الايمان بوحدة الله ، لأنه **« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصــار وهو اللطيف الخبير »** (٢) . والايمان بما أنزل هــو الايمان بالوحى والرسالة الالهية والمعرفة بالآخرة والايمان بها فى صورة مؤكدة . وفى سورة النساء يعبر القرآن الكريم عن هذه الفروع الثلاثة من الايمان تعبيرا آخر : فيطلب الايمان بها ثم يصف من يكفر بها بأنه قد ضل ضلالا بعيدا : **« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً »** (٣) .

وهذه الخلقية الدينية التى تقوم على عناصر الايمان الثلاثة ، وهى التى تدفع الى حسن السلوك ، والى الاســتقامة فى المعاملة ، والى التعاون والتآخى بين الأفراد . ودفعها الى ذلك دفع ذاتى ، لا يحتــاج الى محرك خارجى ، ولا الى رقابة خارجية . اذ السلطان على الفرد عندئذ هو الاعتقاد الذى يحمله المؤمن بين جنبيه . والفرق بين المؤمن الذى يحمل فى نفسه القوة الدافعة الى العمل المستقيم والتعاون مع الغير وبين القانون الذى يضعه المجتمع ويفرضه بقوة الحراسة ، وهى القوة التنفيذية .. الفرق هو أن سلطان القانون وما يصحبه من قوة تنفيذية خارج عن الانسان . والانسان فى المجتمع المدنى الحديث وهو المجتمع صاحب القانون الوضعى وصاحب السلطة التنفيذية يعمل بدفع هذه القوة الخارجة عنه . ولو تهاون هذا المجتمع تطبيق القانون يوما مــا ، أو خفت رقابة السلطة التنفيذية فان الفرد يتهاون بدوره فى أداء ما كان يحتم عليه القانون أداءه وما كانت السلطة التنفيذية ترتقبه منه .

---

(١) البقرة : ١ ــ ٥ .
(٢) الأنعام : ١٠٣ .
(٣) النساء : ١٣٦ .

وإذن المجتمع الذي لا يعتمد على قوة ذاتية دافعة في أفراده — كالخلقية الدينية — يتوقف العمل الجماعي فيه على قوة السلطة التنفيذية وعلى دقة مراقبتها لتنفيذ القانون الذي وضع لهذا المجتمع . والدولة الحديثة في المجتمعات الحديثة تتحمل عبئا ثقيلا في سبيل الحصول على مثل هذه القوة التنفيذية ، وعلى مثل هذه الدقة في طرفيها .

وفرد المجتمع الحديث يشعر دائما وأبدا بأنه مسوق ومدفوع بقوة القانون ، ويشعر كذلك بأن حريته محدودة واختياره محدود لأنه شبه مجبر على ما يفعل ويؤدي من عمل . بينما الفرد في المجتمع صاحب الخلقية الدينية كالمجتمع الاسلامي في نظام تكوينه — لا يشعر بمثل هذا الضيق النفسي . بل يشعر بأنه هو الذي يدفع نفسه وانه لذلك حر فيما يندفع اليه .

والحرية الفردية على هذا النحو في المجتمع صاحب الخلقية الدينية عامل في البناء وعامل في اتقان العمل . لأن الحرية في العمل والدفع الذاتي نحو الفعل تصحبه دائما رغبة ، وبجانب الرغبة متعة كذلك . ولذلك حاول بعض الأخلاقيين المثاليين في المجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر أن يضع خلقية ذاتية تقوم على فكرة : « أداء الواجب لذات الواجب » وشاعت هذه الخلقية المثالية في الشعب الألماني على الخصوص ، وعرفت هذه الفكرة بفكرة « كانت » أو بالواجب الخلقي . ومع أنها خلقية دافعة نحو العمل من ذات الانسان دون رعاية للقانون الوضعي وما يصحبه من سلطة تنفيذية — فانها تفترق عن الخلقية الدينية التي يريدها الاسلام للمجتمع الاسلامي ، والتي هي أساس لتماسك المجتمع الاسلامي ، وتعاون أفراده . لأنه مهما كان الأمر فلا يغيب عن أذهاننا أن أساس القوة الخلقية هو الاعتقاد بالله . وأن أساس الخلقية المثالية هو تصور عمل الواجب من الانسان للانسانية وشتان بين قوة تعتمد على الاعتقاد بالله ، والأخرى تقوم على تصور الانسان للانسانية . . فالاعتقاد بالله من شأنه أن يبقى أو أن يطول أجله على الأمد ، بينما تطورات الانسان مهما كانت فانها تخضع للعوامل التي يتأثر بها الانسان ، ويسهل عندئذ أن يتغير تصور الانسان من لون الى لون آخر .

هذه الخلقية الدينية التي تقوم على **العناصر الثلاثة للايمان : الايمان بوحدة الله ، وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وباليوم الآخر** — اذن قوة مثمرة في أن يحسن الانسان في سلوكه وأن يحسن في تعامله مع

غيره . واذا أحسن الانسان في سلوكه وفي تعامله مع غيره لم يكن التعاون أمرا ممكنا بين الأفراد فحسب ، وانما كان نتيجة حتمية بينهم : بل ستؤدى الى الشعور بالأخوة وايجاد الألفة القائمة على المحبة : وهنا يكون التساند والتماسك .

***

● **مضمون الرسالة الاسلامية :**

وبما أن الايمان بوحدة الله الذى هو عنصر في تكوين الخلقية الدينية هو في واقع الأمر ايمان بالتحرر من الخرافة والاعتقادات الباطلة والذلة والمهانة ، وايمان بالمستوى الرفيع في الانسانية ، وهو مستوى العزة والكرامة — فالايمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ليس في واقع الأمر ايمانا بشخصه كانسان ، وانما ايمان به كصاحب رسالة وكحلقة في تبليغ وحى الله الى الناس ، واذا كان مضمون هذه الرسالة هو تخطيطا لسلوك الفرد ولحدود التعامل بين الفرد والفرد في المجتمع ، فالايمان بالرسول عندئذ وبرسالته هو اتباع لتنفيذ مضمون هذه الرسالة ، أى لتنفيذ حدود الاستقامة في السلوك وخطوط المعاملة بين الأفراد .

واذا رجعنا الى مضمون هذه الرسالة وما رسمته من حدود وتخطيطات ، فسنجد أن ما صنعته في ذلك **يهدف الى التعادل والتوازن بين ثنائية الفرد وبين الفرد والفرد في المجتمع من جانب اخر ،** اذ الفرد — وان كان في مظهره وحدة واحدة — هو في واقع أمره يتكون من جانبين متقابلين أو متنازعين : يتكون من الحكمة التى توحى اليه بالاعتدال ومن الهوى الذى يوحى اليه بالنظر في الخروج عن حد الاعتدال ، يتكون من عقل وجسم ، وكل منهما له اتجاهاته . وهنا تجد رسالة الاسلام في هذه الدائرة ، وهى **دائرة الفرد** ، لم تنكر اتجاهيهما من هذين الاتجاهين ، وانما ما حددته في ذلك من شأنه أن يكفل التوازن بينهما : ((**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين**)) (١) فهذه الآية وجدها ترى منها أن الاسلام يقر طبيعة الانسان على أنها طبيعة مادية روحية ، على انها طبيعة واقعية مثالية ، بينما لا يحول بينه وبين الدنيا والاستمتاع بها ، وهذا ما يتصل بالجانب المادى

---

(١) القصص : ٧٧.

اذا به يطلب من الانسان أن يكون فى استمتاعه بهذا الجانب وفى تحصيله الدنيا قاصداً وجه الله ، ومعنى وجه الله فى ذلك أنه لا ينحرف بالدنيا الى الفساد والاعوجاج ، اى لا يتخذ مما يحصل عليه من جاه الدنيا ومالها وسيلة لاثارة العبث والفساد فى المجتمع ، وهذا معنى قول الله تعالى : ((**ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين**)) .

أما فى دائرة المجتمع : اى فى دائرة علاقة الفرد بالفرد فان الاسلام وضع نظاما للاسرة وهى أقل وحدة من وحدات المجتمع . وضع نظاما للزواج وللزوجية ، اى لاشراك فردين فى حياة واحدة لغاية واحدة . ونظامه فى هذا لا يقضى على فردية الاثنين ، ولا يطلب صهر أحدهما فى الآخر ، لأنه يعلم أن الخصائص الفردية وهى ما لكل فرد ، باقية لا يمكن ان تفنى ولا أن تذهب فى فرد آخر . وكل ما طلبه فى هذا الشأن هو أن يكون هناك انسجام وتعادل بينهما لا يطغى احدهما على الآخر ، ولا يستهين أحدهما بالآخر ولايذل أحدهما الآخر . وانما يسير كل منهما جنبا الى جنب كما تسير الأجزاء المتناسقة فى وحدة واحدة . ومن هنا جعل لكل من الطرفين فى الزوجية حقوقا وواجبات : ((**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة**)) (١) .

فالمماثلة فى الحقوق والواجبات اذن قائمة بين الاثنين . أما هذه الدرجة التى تذكرها هذه الآية وتجعلها خصيصة أو مشيرة فى جانب الرجل ، فليست الا تلك القوامةالتى تشير لها الآية الأخرى : ((**الرجال قوامون على النساء**)) (٢) وليست هذه القوامة هى عبارة عن سلطة وسيادة ، وانما هى عبارة عن قيادة وتوجيه . ولم يجعلها الاسلام فى جانب الرجل الا لأن الرجل بحكم تكوينه فى طبيعته ذو مسئولية فى الحياة الخارجية . لا تستطيع المرأة بحكم طبيعتها أن تقوم بها كقاعدة وانما على سبيل الاستثناء . اذ طبيعة المرأة بحكم انها تحمل وتلد ، هى فى رعاية حملها وفى جانب ولدها وهى من أجل ذلك لا تتفرغ للحياة الخارجية كما يتفرغ اليها الرجل بحكم طبيعته ، لذلك كان السعى فى حفظ حياة الأسرة وصيانتها أمرا يجب أن يتكفل به الرجل ويسئل عنه ، واذا كان وضعه على هذا النحو فمن غير ما شك يجب أن تكون له قيادة وان يكون له

---

(١) البقرة : ٢٢٨ . (٢) النساء : ٣٤ .

توجيه . والحدود الأخرى التى وضعها الاسلام فى معاملة الرجل للمرأة خاصة تمنعه من أن يستغل هذه القوامة أو يسىء الى المرأة : ((**الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان**))(١) ، فطلب الاسلام الاحسان فى الابقاء على الزوجة كما طلب هذا الاحسان نفسه عندما يريد أن يفارق الرجل امرأته ، والمؤمن صاحب الخلقية الدينية بحكم أنه مؤمن وصاحب خلقية دينية ، لا يكون الا محسنا . لا يستغل ولا يسىء استخدام ما وكل اليه من قيادة وتوجيه . واذن قوامة الرجل هى محض توجيه واخلاص فيه لصالحهما معا .

ولم يشأ الاسلام — لأنه يبقى على فردية الفرد ولا يدع أحد الاثنين ينصهر فى الآخر — أن يجعل الزوج ، بحكم هذه القوامة مستغلا لزوجته . فيما تعطى وفيما تملك ، وفيما تعتقد ، وفيما ترى ، شىء واحد يجب أن تحرص عليه هو الا تسىء عن طريق ما تملك ، أو عن طريق ما ترى وتعتقد ، الى زوجها .. الا تتخلف فيما عليها من واجبات ، كما تطلب ما لها من حقوق .

واذا تجاوزنا دائرة الزوجية الى أسرة القرابة فاننا نجد الاسلام كذلك ، يطلب أن يكون هناك توازن وتعادل بين افراد الأسرة الذاتية كما يجب أن يكون هناك توازن وتعادل بين أسرة الزوجية بقول الله تعالى : ((**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا**))(٢) . الآية .

فطلب الاحسان فى معاملة الأبناء للوالدين ، كما طلب الاحسان فى معاملة أحد الزوجين للآخر . وهذا الاحسان الذى طلبه هنا فى معاملة الأبناء للوالدين ربما نستشف معالمه من الآية الكريمة الآتية الأخرى : ((**فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما**))(٣) . وهذا ضرب من الاحسان يمثل أرقى مستوى انسانى فى المعاملة . ومن غير ما شك ما تحمله الوالدان فى سبيل الأبناء يوحى أن يكون موقف الأبناء منهما على ما يطلبه القرآن الكريم ..

أما الآباء فى موقفهم من ابنائهم فلم يوص الاسلام الآباء هنا على نحو ما أوصى الأبناء قبل (٤) الآباء . لأن الاسلام يعتمد على العلاقة الطبيعية بين الجانبين ، وهى علاقة قوية من جانب الآباء نحو الأبناء لا يقابلها بمثل

---

(١) البقرة : ٢٢٩ (٢) النساء : ٣٦
(٣) الاسراء : ٢٣ (٤) قبل : بكسر القاف وفتح الباء واللام .

هذه القوة ، علاقة الأبناء نحو الآباء ، وكل ما أوصى به الاسلام ، هنا ألا يفتتن الآباء بالأبناء : يقول الله تعالى : **((انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيرا لأنفسكم ..))** (١)

وهكذا ان تركنا أسرة الزوجية وأسرة القرابة الخاصة الى القرابة البعيدة تجد الاسلام ينصح بالتعاطف والتوادد ، كما ينصح بأن يشرك الغنى الفقير فى ماله . يقول الله تعالى : **((ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى ...))** (٢)

حتى ما يتصل بالأسرة سواء أكانت أسرة زواج أو أسرة قرابة . فان الاسلام يطلب هذه الرعاية حتى لا يكون هناك بغضاء . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اخوانكم خولكم . أطعموهم مما تطعمون ، والبسوهم مما تلبسون ، ولا تعذبوا عباد الله » .

واذا كانت نظرة الاسلام الى الأسرة فى صورها المختلفة هى هذه النظرة التى تقوم على طلب التعادل والتوازن بين افرادها — **فالمجتمع الكبير ، وهو المجتمع الاسلامى يطلب فيه أيضا من قبل الاسلام أن يكون هناك تعادل وأن يكون هناك توازن .**

ولم يشأ أن يكون هذا التعادل والتوازن منبثقا من دفع خارجى كما ذكرنا ، وانما أراد أن يكون **مصدره الذات . ومن هنا حث على ((الاحسان))** وليس الاحسان هو اعطاء الفضل من مال ، واما الاحسان هو التصرف طبقا لمستوى انسانى مهذب . الاحسان مشتق من أحسن ضد أساء . أحسن فى التصرف ، أحسن فى العطاء . أحسن بالعمل فى الاتفاق ، أحسن فى العلاقة ، أحسن فى رعاية الروابط ، أحسن فى الاقناع ، أحسن فى الستر فى الأعراض ، أحسن فى رعاية الحرمات . كل ذلك الاحسان يطلبه الاسلام . وهذا الاحسان لا يتم مطلقا الا عن خلقية دينية ، الا عن ضمير خلقى . لا يتم عن دفع القانون الوضعى الانسانى . ولا عن رقابة السلطة التنفيذية المصاحبة له .

---

(١) التغابن : ١٥ ، ١٦ (٢) البقرة : ١٧٧

وهنا يكون الايمان برسالة الرسول هو الايمان — كما ذكرنا — باتباع هذه الحقوق العامة ، باتباع هذه الحدود فى معاملة الانسان لنفسه ومعاملته لغيره . والمجتمع ما هو الا انسان وغيره ، فرد وفرد ، ومن هنا يتضح قيمة الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبرسالته وأثرها فى تكوين وتوجيه الخلقية الدينية .

أما الايمان بالجزاء الأخروى ، فانه كما ذكرنا باعث الحيوية فى هذه الخلقة العامل فى استمرار حركتها نحو أهدافها . لأن المعتقد بالله وبرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم اذا اعتقد بالجزاء الأخروى ، فانه سيتذكر فى كل لحظة أن الجزاء واقع لا محالة ، وأنه من أجل ذلك لابد أن يعمل فى كل لحظة طبقا لما جاءت به الرسالة ، ولذلك شدد الاسلام كثيرا النكران على من جحد البعث واليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء .

والاسلام لم يذكر هذه الخلقية الدينية بصريح العبارة ولم يطلبها بهذا النص وانما طلبها فى **صورة العمل الصالح** . لأن العمل الصالح هو نتيجتها وثمرتها فيقول الله : **« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما »** (١) . **« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »** (٢) . **« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم »** (٣) . **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »** (٤) .

واذا تحدثنا عن الخلقية الدينية أو الضمير الدينى فى المجتمع الاسلامى ، **وازنا بينها وبين القانون الوضعى والسلطة التنفيذية فى توجيه المجتمع ودفعه** الى الاستقامة فى السلوك وحسن التعامل — فانا لا نريد أن نحط من قيمة القوة التنفيذية والرقابة العامة ، فى المجتمع . انا لا نريد أن نحط من هذا وذاك ، لأن المجتمع مهما استقام أفراده فان من بينهم من سيكون نزاعا الى الشر والافساد والعبث .. بل منهم من سيكون متحديا للقيم الأخلاقية الفاضلة وللمثل العليا وللاستقامة ولصالح المجتمع العام ، ولو قلة . بل ربما فى بعض الأحايين تضعف هذه الخلقية يوما ما فيكثر الفساد والعبث اذا لم تكن هناك سلطة تنفيذية ، ورقابة عامة على المجتمع . والاسلام من

---

(١) طـه : ١١٢ (٢) النسـاء : ١٢٤
(٣) المـائدة : ٩ (٤) النحـل : ٩٧

أجل هذا لا ينكر قيام مثل هذه السلطة ولا وجود هذه الرقابة . وانما يطلبها وينشدها . لأن طبيعة الانسان هى طبيعة الانسان . فيها البر والفاجر ، وفيها المستقيم وغير المستقيم . وقد سار المجتمع الاسلامى منذ بداية تكوينه فى المدينة على ان تكون هناك رقابة ، وأن تكون هناك سلطة تنفيذية ، وقد كانت درة عمر رمزا لهذه السلطة التنفيذية وهذه الرقابة العـامة .

وكل ما أردناه من حديثنا عن الخلقية الدينية وتأكيدنا لقيامها وضرورتها هو أن يحرص المجتمع الاسلامى أو اى مجتمع آخر على وجود هذه القوة فيه وبقائها ورعايتها . لأنه من صالح المجتمع — كما ذكرنا — أن يقاد أفراده عن طريق الدفع الذاتى ، بدلا من أن يقاد جميع الأفراد عن طريق القانون وسلطته التنفيذية . واذا وجدت هذه الخلقية الدينية ، ووجدت آثارها طبقا للايمان برسالة الاسلام كما صورنا — فان المجتمع الاسلامى عندئذ لايواجه مشاكل يطلب حلها . لأن هذه الخلقية نفسها اذا كانت قوية فى دفعها الى العمل الصالح فانها تكون وقاية من وقوع المشاكل اذ أن مشاكل أى مجتمع انما تنشأ عن النفرة ، انما تنشأ عن عدم الاستقامة فى التصرف وعدم التعاون والتوازن فى التعامل ، انما تنشأ عندما تخفت روح التعاطف وتتغلب الأنانية فتفسد بين الناس ، عندئذ يواجه المجتمع مشاكل : الفرد نفسه يواجه مشاكل مع نفسه ومع غيره ، والأسرة تواجه مشاكل فى علاقة بعضها ببعض ، والزوجة وزوجها يواجهان أيضا بعض المشاكل .. وهكذا وهلم جرا ..

ولذلك لم تكن تعاليم الاسلام التى يجب الايمان بها حلا لمشاكل ، وانما كانت وقاية من المشاكل ، وهو عندئذ مجتمع شعاره : الوقاية قبل العلاج .

***

- **الاحتفاظ بشخصية المجتمع عند الاعتداء عليه :**

هذان — الايمان بوحدة الله والخلقية الدينية — عاملان فى تكـوين المجتمع الاسلامى وفى بقائه وتماسكه . وهناك عامل آخر للاحتفاظ بشخصية المجتمع الاسلامى من الاعتداء عليه من خارجه . هذا العامل هو الجهاد فى سـبيل الله ..

مبدأ الجهاد تصد به الاسلام أمرين :

● الأمر الأول : أن يبقى المجتمع الاسلامي على اسلامه وعلى أيديولوجيته ونظـــامه .

● الأمر الثاني : هو صيانة النظام الاســلامي وصـيانة أيديولوجيته من العدو الخارجي عليه .

وهذا العدو الخارجي هو ذلك الذي يكفر بهذه الايدولوجية ، ويمعن في كفرانه بها ويسخر منها ، وهو اذ ينكر على المجتمع الاسلامي أيديولوجيته ونظامه ينكر في واقع الأمر وجـوده وقيامه ، ويريد تفتيته وذوبـانه في مجتمعات أخرى ، والجهاد ، وهو الدفـاع عن هـذه القيم وصيانتها من الاعتداء عليها ، قد يكون دفاعا أدبيا بالرد على ما يوجه الى هذه القيم من انكار أو استهتار : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »(١) وليس المراد هنا القتال بالسيف ، وانما الغرض منه مقاومة الاستهتـار والاستخفاف بالقيم الاسلامية ، حتى لا تكون فتنة بين المسلمين بسبب هذا الانكار والاستخفاف والاستهتار ، وحتى لا يكون هناك خوف أو اضطراب وبلبلة بسبب هذا الهجوم الانكارى على القيم الاسلامية .

وقد يكون — وهو ما عرف به — ماديا . وهو اللقاء بالسيف والمدفع وبآلة الحرب . ولكن لرد الاعتداء المادى من نوعه . ولو استعرضنا آيات القتال لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى لم يطلب من المجتمع الاسلامي في وقت من الأوقات أن يبدأ قتالا أو اعتداء ، وانما كل ما طلبه منه هو رد الاعتداء .. وكان الاسلام كريما محسنا ، وكان انسانيا أيضا في طلبه رد الاعتداء اذ قصره على تلك الحـدود التي يعتدى بها المجتمع الاسلامي :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (٢) .

ففي الوقت الذي طلب فيه رد الاعتداء وأن يكون ذلك في الحدود التي اعتدى بها المعتدى ، علل بأن التزام ذلك هو من ضروب التقوى ، وذكر أن الله مع المتقين .. أي مع الملتزمين حدود الله .

ويمكننا أن نخلص من هذا ، الى أن المجتمع الاسلامي هو مجتمـع تحررى ، ومجتمع تعاوني ، ومجتمع متوازن متعادل . هو مجتمع يحرص على استقلاله وحفظ كيانه وصيانة وجوده .

***

---

(١) الأنفال : ٣٩ . (٢) البقرة : ١٩٤ .

الروحيـــة المعـــاصرة

هذا ما بين الفلسفة المعاصرة فى طريقها الى العلم التجريبى والتطور الصناعى ، وبين الاسلام فى دعوته الى القوة والخلق والسيادة . وهناك اتجاه آخر يدخل فى صميم الفلســـفة المعاصرة . وهو اتجاه يقوم على مقاومة الالحاد والمادية معا . هو اتجاه الروحية . واتجاه الروحية يقصد به التخفيف من حدة غلو المادية والالحاد معا ، ولكنه اتجاه فى دعوته الى الروحية يريد أن ينصر احدى الكتلتين أو أحد المجتمعين القائمين — وهما المجتمع الاشتراكى والمجتمع الرأســـمالى — على الآخر . **هو يدعو الى الايمان بالله ، ولكن فى دعوته الى هذا الايمان بالله يناضل الشيوعية ، وهى عنوان المجتمع الاشتراكى . فهو لايدعو الى ذات الروحية تقييما لها ، بل الى الحد من نشاط الدعوة الى هذه الشـــيوعية** والوقوف فى سبيلها دون الانخداع بوعودها . **ولذا ترى القائمين على هذا الاتجاه الروحى وتنشيط الدعوة اليه فلاسفة المجتمع الرأسمالى او الكنيسة المسيحية فى العـــالم الرأسمالى** واذ تقوم الكنيسة بذلك تقوم رغبة فى تأييـــد الجبهة أو الكتلة الرأسمالية ، وصون نفوذها فى مجموعة الشعوب الرأسمالية .

على أن ما يدعو اليه هذا الاتجاه الروحى من الايمان بالله يبقى فى حدود الدعوة أو القول ، يبقى غير محدد . ثم ليس له من نظام تعليمى يسنده كالنظام الذى أتى به الاســـلام فى تحديد جوانب حيـــاة المجتمع الاسلامى وحياة أفراده .

ولهذا يبقى الاسلام متميزا بنظامه وبدعوته الى الايمان بوحدة الله . ويجمع بين ما تنشده الروحية من مقاومة طغيان الالحاد والمادية ، وبين ما يطلبه واقع الأمر من معالجة النقص الذى يشوب المجتمعين الحديثين المتقابلين : الاشـــتراكى والراســـمالى . ويبقى بذلك مثلا لنظـــام معين ولأيديولوجية خاصة ، لا هى الى الاشتراكية ، ولا هى الرأسمالية ، ولا هى الى سلب الأفراد أخص مظاهر غرائزهم ، ولا الى طغيان بعض الأفراد على بعض (•)

* * *

لماذا وجدت الفلسفة المعاصرة

واذا كان الاسلام على هذا النحو ، فالسؤال الذى يدور فى اذهاننا هو : **لماذا وجدت الفلسفة المعاصرة** ، وهى **الفلسفة الحسية او المادية** ، **والاخرى المقابلة** لها وهي الفلسفة الروحية ، والجواب **أن ذلك لم ينشأ اصالة فى محيط الاسلام ولا فى الدائرة الاسلامية** كما ذكرنا أولا ، **وانما نشأ فى الغرب واستعاره المجتمع الاسلامى** أو قذف به الى المجتمع الاسلامى قذفا ، ثم قبله فريق من المسلمين يدافع عنه ويبشر به . واذا كان قد نشأبعيدا عن محيط الاسلام فالذين يقبلون عليه ويبشرون به فى المجتمع الاسلامى بعيدون أيضا فى واقع أمرهم عن محيط الاسلام ، بعيدون عنه فى أدراكهم أو بعيدون عنه فى نفوسهم لغاية معينة .

نشأت هذه الفلسفة — كما ذكر أولا — فى المجتمع الأوروبى فى القرن التاسع عشر . وكانت نشأتها نتيجة صراع بين ما للانسان كانسان بغض النظر عن قوة اخرى خارجة عنه ، وبين الانسان ، كرسول وكمبشر بقوة اخرى خارجة عن الانسان وذات صلة وثيقة بتوجيهه . نشأت نتيجة صراع بين الفلسفة المثالية الانسانية وبين الاتجاه الالهى فى الكنيسة الكاثوليكية . وقد كان صراعا مريرا وطويل الأجل .

والفلسفة المثالية او الفلسفة الانسانية تقصد الى الغض من رسالة الوحى ، أو بالأحرى الى الغض من رسالة أولئكم الذين يتحدثون باسم الوحى وهم رجال الكنيسة . ولم يقصدوا الى ذلك الا بعد ما عابوا خطوات الكنيسة فى سبيل توجيهه الفرد والمجتمع الأوروبى . فالكنيسة كانت تملى املاء ما يعتقده الفرد وما يقوله وما يسير فيه ، فى جانب البحث ، والفكر ، والسلوك . وكانت تتخذ من نفسها وسيطا فى تحديد مصائر الأفراد وفى صلتهم بالله . وكانت تعطى لهم من صور الاعتقاد وتطلب اليهم من أداء الرسوم ما يقف عنده العقل الانسانى مفكرا ومتسائلا : لماذا ؟ . ثم لا يستطيع أن يجيب على تساؤله هذا ولا أن يحصل على جواب له من المختصين بشئون رسالة الوحى ، وهم رجال الكنيسة .. فصكوك

الغفران . وعقيدة التثليث ، ورسوم كثيرة فى العبادة ، وأمتزاج الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية ، أو حلول ما لله فيما للانسان ، كان دائما محل تساؤل من العقل الانسانى الخاضع لايمان الكنيسة .

ولذا نشدت هذه الفلسفة المثالية **الحرية** . نشدت حرية الانسان فى تفكيره ، وحريته فى تخطيط طريق سلوكه ، وحريته فى تحديد مصيره ، وطلبت الغاء اعتبار صلة الانسان بقوة أخرى تسمى ما تسمى من أسماء أو تنعت بما تنعت من صفات . وكانت ترى أن الحرية هى كل شيء .

وجعلت من الانسان سيدا لنفسه وسيدا على ما عداه فى كونه ، خلصته — كما تقول — من الرق فى التأثر بغيره وفى الاندفاع فى طريق لم يرسمه الانسان بنفسه . ومن هنا سميت بالفلسفة الانسانية .

ولأنها عظمت حرية الانسان والقيم الانسانية الاخرى ، وهى قيم تتصل بطاقاته وامكانياته فى الخلق والابداع ، سميت فلسفة مثالية .

ولأنها أنكرت ما عدا الانسان فى وجود الانسان ومحيطه ، واشتبكت فى صراع وفى كفاح مع الكنيسة وتعاليمها . ورمت الكنيسة بالجمود والرجعية ، وباسترقاق الانسان واستذلاله . ورمتها الكنيسة بدورها بالالحاد والكفر والوثنية ، لانها بدلا من أن تؤمن بالله آمنت بالانسان وباستطاعته فى الخلق والابداع ، وطال الصراع بين الاتجاهين واستغرق القرن الثامن عشر كله .

وجاءت الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة المادية الواقعية ، ودخلت فى الصراع مع الفلسفة الانسانية المثالية ومع الكنيسة وتعاليمها . ورمت الفلسفة المثالية بأنها فلسفة خالية من حقائق الواقع ، وانها جوفاء فارغة لا غنى فيها ، كما رمت الكنيسة وتعاليمها والدين عامة بالرجعية والتخلف والجمود . ونعتت نفسها بالتقدم والتطور . وأمعنت فى تتأييد ما نعتت به نفسها وما وصفت غيرها من اتجاه فلسفى أو دينى .

ولكن لكى يخلص الانسان فى الحكم على الاتجاهات كلها التى تشتبك الآن فى صراع بعضها مع بعض ، ولكى يكون مع اخلاصه حقيقا فيما يصدر من احكام وتقديرات يجب تحديد المفاهيم أولا (١) .

* * *

---

(١) انظر الفصل الأول .

الفصل الثالث

نظم الحكم المعاصرة

- بين يدى الموضوع .
- النظام الرأسمالى الغربى :
  - طبيعة النظام الرأسمالى الغربى .
  - الاتجاه الرأسمالى .
- عوامل قيام الرأسمالية الغربية :
  - (ا) الاصلاح الدينى
  - (ب) الثورة الفرنسية
  - (ج) التقدم الصناعى
- النظام الاشتراكى .
  - النظام الاسلامى فى مصادره الأصيلة
  - المجتمع الاسلامى المعاصر
  - الطريق الى اعادة الوضع الاسلامى
- ما هو النظام الاسلامى .. فى صورته المستحدثة

نظـــم الحـــكم المعـــاصرة

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (١) .

● بين يدى الموضـــوع :

ان الغزو العسكرى للبلاد الاسلامية لم يكن الا سندا لاستغلال **ثرواتها الطبيعية والبشرية** ، ومقدمة فى الوقت نفسه لتوطين **نظام الحكم الغربى فى مجتمعاتها** وهو النظام الرأسمالى . فكان العامل الاقتصادى أولا .

ثم كانت الحماية العسكرية للعمليات الاقتصادية الاستغلالية ، ثم كان نظام الحكم على أساس من « الليبيراليزم » والحرية الفردية فى المبادلات التجارية ، والسلع الاستهلاكية والمواد الخام للصناعة الأوروبية .

ثم كان النظام الديمقراطى البرلمانى فى التوجيه السياسى بعد يقظة الوعى القومى فى أى من هذه المجتمعات ... كان ذلك كله يصور العلاقات فى ربط الشرق الأفريقى والآسيوى بالغرب الاستعمارى الصناعى .

وكل واحد فى هذه العلاقات يمثل مرحلة تمهيد لمرحلة أخرى تالية حتى نهاية المراحل التى أحكمت تبعيـــة الشرق للغرب فى الاقتصاد ، والفكر ، والثقافة ، والسياسة ، والقانون ، بحيث اذا حاول هذا الشرق الانفكاك من هذه التبعية بعد نمو الوعى القومى والاتجاه الى التحرر والاستقلال فيه لاقى المشاق والمتاعب فى سبيل اقامة دعائم الاستقلال للمجتمع ، ولاقى العنت فى سبيل محاولة تثبيت هذه الدعائم .

***

---

(١) التوبة : ٣٣ ، الصف : ٩ .

كان استغلال رؤوس الاموال الأجنبية فى البلاد الاسلامية فى أفريقيـا وآسيا هو الهدف الأصيل للصناعة الأوروبية بعد أن أدخلت « الآلة » فيها وتحول عهد « الاسطوات » فى المهن والحرف المختلفة الى عهد عمال يقومون بالعمل بالاجر فيها .. اى بعد الثورة الصناعية منذ بدية القرن التاسع عشر (انجلترا ـ المانيا ـ بلجيكا ـ فرنسا) وقد وجدت رؤوس الأموال الاجنبية فى البلاد الاسلامية امكانيات ضخمة للاستثمار والاستغلال : سواء من جهة وفرة المواد الخام أو وفرة القوى البشرية الرخيصة الاجر ولكى تحافظ على عائدها وعلى اتساع رقعة الاستثمار لتحقيق عائد أكبر جاء دور **الاحتلال العسكرى** كحفيظ لهذه الامـوال وعلى نشاطها بعد تكوين الشركـات الاستثمارية ودخولها هذه البلاد مستثمرة ومستغلة . ثم تأمينا للجاليات الأوروبية التى تقوم بالنشاط فى هذه الشركات على سلوكها وتصرفاتها عمل الاحتلال على دخول القوانين الأوربية وهى قوانين تساعد على النشاط الحر فى الاقتصاد ـ وهو اقتصاد لصالح الصناعات الأوربية ـ وعلى عدم اخضاع الأوربيين فى تصرفاتهم العامة والخاصة لقوانين البلد المحتـل وعاداته ونظامه التشريعى . وهنا ابتـدأ دور « الامتيـازات الأجنبية » يتشكل ويؤدى فاعليته .

من وراء تلك القوانين كان دخول **التعليم « العلمانى »** والفكر الغربى فى توجيه الحياة . وذلك لاعداد الأجيال القادمة على الطاعة والتسليم بقيم الغرب « فى مجتمعه » وبريادته فى القيادة .

ثم كان آخر المراحل دخول النظام السياسى : وهو النظام البرلمانى القائم على وجود عدد من الأحزاب السياسية ، وعلى قيام مجلسين احدهما يمثل عامة الشعب وثانيهما يمثل رجال الأعمال وأصحاب الثروات . وكان هذا النظام آخر المراحـل . لأنه لم يأت الا اثر « منح الاستقلال » من المستعمر للبلد المحتل ، بعد جهاد طويل المدى من القوى الوطنية ضده ، وتحت ظروف عالمية خشى منها عواقب سيئة بالنسبة لحياته الاقتصادية ، لو تمسك بالشكل الظـاهرى للاحتلال فترة اخـرى اثر ظهور الوعى القومى .

والاستقلال الذى اعلن كان من طرف واحد هو طرف المستعمر ، دون المجتمع الذى كان محتلا وتوثقت أواصر التبعية بينه وبين ريادة الغرب وقيادته فى مجالات الحياة المختلفة . فالعوامل التى شدت رباط هذا المجتمع

بالغرب ذات فاعلية طويلة المدى ، تتجاوز وقت اعلان الاستقلال الى اجيال أخرى فيه .

ويعلل المستشرق الانجليزى « جب » تبعية المجتمعات الاسلامية فى الشرق الى الدول الأوربية الصناعية فى الغرب بضعف قوة المجتمع الاسلامى وعدم استطاعة ما فيه من ثقافة وقيم الى ايجاد وحدة ثقافية متكاملة تحفظ عليه التوازن ، وليس الى اكراه الغرب واستعماره ... يقول :

« ان الشرق الأدنى قد تعرض لهجوم الوسائل التكنيكية العسكرية ، والاقتصادية ، والعملية . ذلك الهجوم الغربى المتكتل فى القرن التاسع عشر كان بينا سابقا »

« ويزعم الكتاب الشرقيون بوجه عام اليوم ، أو يخيل اليهم أن التأثيرات الغربية والتغييرات التى نجمت عنها ، انما فرضت فرضا بالعنف على بلاد الشرق الأدنى .

وليست هذه الفكرة صحيحة الا ضمن حدود ضيقة نسبيا !

والواقع أن جل هذه التغييرات تعمل عملها الحسن ! . وما زالت هذه الأوضاع الجديدة تثابر فى عملها اليوم . وانما حدث ذلك على المنوال المذكور بسبب أن اولئك الناس قد شعروا اما بالاحتياج الى هذه التفسيرات ، أو بجاذبيتها الخاصة ، ويعنى ذلك انهم عزوا الى الافكار الجديدة اهمية اكبر وقيمة أعظم مما هو مقرر فى حدود الافكار التقليدية .

« أن اكتساح الأوضاع والقيم الغربية وعجز المجتمع القديم عن مقاومتها بنجاح ، كل ذلك **ينبغى أن يعزى لضعف خفى كامن فى المجتمع الاسلامى نفسه** فقد عرفت المدينة الاسلامية فى الشرق الادنى : كيف تقيم التوازن الاجتماعى المتميز بجميع الاعتبارات خلال عصور طويلة ، وكذا الى انجاز وحدة ثقافية حقيقية وتكوينها تكوينا تاما » .

ثم يصف مستوى التبعية وأبعادها فيقول :

« والحق انه ليس من الممكن غض الطرف عن المستوردات الغربية ، وان الحياة العامة كلها ، والحياة الاقتصادية الى حد كبير ، تدخلان فى آلية المنظومة الغربية .

« حتى أن كلمة (صـــار عصريا) انما تشير الى معنى : صار غربيا (١)

« أن الاختلاط الملحوظ اليوم فى البلاد العربية يستند فى أساسه الى الاختلاط فى الفكر . ويكاد يكون من المتعذر أن نجد تحليلا صادقا للحوادث (٢)

« ومن الممكن بوجه عام أن نميز مرحلتين فى هذا التطور:

« أولاهما : مرحلة اقبال الحكام على تلقى الأساليب العسكرية والادارية. وقد نتج عن ذلك ازدياد نفوذهم ازديادا كبيرا . ودعمت القيم المادية للمدنية الغربية عند نقلهـــا الى مجتمع الشرق الأدنى القيم المـــادية التى كانت موجودة من قبل .

« وفتحت ميادين واسعة جديدة يستثمرها الشرقيون أنفسهم . ولم ينجم عن هذا التأييد والدعم اشتداد التباين الداخلي واختـــلال التوازن فى البيئة الاجتماعية فحسب ، بل نتج عنه اضطراب المقاومة — مقاومة المستورد والدخيل على المجتمع — وفسادها ، حتى صار التهافت والتشتت داخل المجتمع الاسلامى منذ ذلك الحين مسألة مفتوحة ظاهرة للعيان أمام الناس جميعـــا .

« ولو نظرنا من الخارج الى الرسالة التى كان ينبغى على حياة الثقافة الإسلامية القديمة أداؤها لوجدنا أن تلك الرسالة كانت مشفوعة بفقدان الأمل التام . ولذا شعر الكتاب الغربيون فى نهاية القرن التاسع عشر شعورا مسبقا بحلول عهد الانحطاط والانهيار فى الاسلام .

« وأما المرحلة الثانية : فانها تكشف عن وحى غربى صرف . غير أن القائمين به هم شرقيون أيضا . وهذا الوحى يتصل بالطبقات الجديدة من المتعلمين ، والمحترفين ، الذين نشأوا فى المدارس الغربية — العلمانية والدينية ، وهى مدارس الحكومات المحلية والارســـاليات التبشيرية — وتشربوا عقيدة الشغف بالمثل العليا الانسانية والتكاملية .

---

(١) من محاضرة له فى معهد الدراسات الاسلامية فى باريس فى ٢٤ ابريل سنة ١٩٥١ تحت عنوان : « التأثير المضاد الذى تلقاه الثقافة الغربية فى الشرق الأدنى » ، ترجمة الأستاذ عادل العوا الاستاذ بجامعة دمشـــق تحت عنوان « انقاذ المجتمع الاسلامى » سنة ١٩٥٢ .

(٢) ص ٣٨ المصدر السابق .

« تلك المثل التى قال بها المتحررون » أو انهم اعتقدوا » فى كثفة مستوى دون المستوى السابق . انهم وجدوا ضالتهم فى الأوضاع الحقوقية ، وفى انماط الحكومات الغربية ، فاتخذوها وسائل تساعدهم فى الدفاع عن انفسهم ضد الاستبداد الداخلى وضد الاكتساح الغربى من الخارج .

« ونحن لن نسهب فى تحليل هذه المرحلة التى وجدت فى فترة ما بين الحربين بوجه خاص ، وهى مرحلة ذات تفاصيل معروفة تماما .

« وان مما يلفت النظر فى هذا التطور هو الفاعلية الرافعة العاملة على نشر الصيغة الغربية . وقد بذلت فى جميع بلاد الشرق الأدنى ، ولكنها لم تبذل بدافع مبادهة السلطات الأوربية ، بل بدافع نام على وجه التقريب من الطبقات المتوسطة والمحترفة ، وعلى رأسها المحامون ، والصحفيون .

« وقد ولدت هذه الفاعلية من استمرار التربية الغربية خلال جيلين . وصرت جميع مفاتيح السلطة الآن بين أيدى اناس تأثروا بالثقافة الغربية فى كافة حقول الحياة القومية .

« ولم يفعلوا لانهم قدروا منفعته حق قدرها ، بل لأنه بدا لهم من الطبيعى قيامهم بما قاموا به على اعتبار انه أمر واقع لا ريب فيه ...

« وقد يكون من الغريب الى حد ما ، أن نقول : إن الوسيلة التى وطدت سلطان الطبقات المستغربة وأيدت دعائمه هى : (القومية) .

« ان القومية هى ذاتها فكرة غربية ، وقد لزم على اتباعها ان يخلقوا غاياتهم ويبلغوا أهدافهم ، وقد نالوا بالفعل هذا التأييد ، فذهب بهم الظن عندئذ الى جواز تنظيم أوضاع بلادهم على منوال تنظيم الدول والأمم (الأوربية) .

« ولكن القومية أخذت تفقد روحها الغربية ، كلما قطعت اشواطا جديدة فى مضمار اجتذاب الجماهير لتأييدها » (1)

ومن آثار فاعلية هذه العوامل التى شدت وربط هذا المجتمع بالغرب انها لا تؤكد « التبعية » فحسب بل فى داخل المجتمع نفسه : أما أن تنشىء فوارق أو تتلمس مفارقات فتحيلها الى فجوات :

---

(1) المصدر السابق ص ٣٠ — ٣٥

● فتدعو الى التبشير لتخلق عقيدة ودينا بجانب عقيدة ودين سائد .

● وتدعو الى ثقافة « علمانية » بجانب ثقافة وطنية أو دينية .

● وتساعد على تجويف المفارقات — بين القلة والكثرة فى المجتمع ان كانت هناك قلة وكثرة فيه أصلا — الدينية ، واللغوية ، والعنصرية ، والقومية .

● وتبرز العادات والأعراف القبلية واللهجات الخاصة بالقبائل المختلفة — ان كان للقبيلة كيان شبه مستقل فى المجتمع المحتل .

وبذلك تخلق « مجموعتين » فى المجتمع الواحد ، تبعا لأى من هذه الفوارق تتجه كل مجموعة نحو الأخرى بالصراع والمنافسة ، والخشية وعدم الثقة ، وربما تتجه بالعداوة وروح الانتقام . وهنا تظهر الدعوة الى سياسة « التوازن » التى رتبت لها هذه العوامل كاتجاه لعدم اعلان الانفصال الواضح بين المجموعتين . فيكون رئيس الدولة مثلا من « القلة » ورئيس الحكومة من « الأكثرية » أو تكون بعض المصالح الادارية أو الوظائف العامة مخصصة لاتباع مجموعة دون مجموعة أخرى ، بحيث يكون « النفوذ » موزعا لا تستأثر به مجموعة دون أخرى .

وتبقى سياسة « التوازن » هذه — بفعل اثر العوامل السابقة — السلاح السرى فى يد المستعمر يحركه من بعيد للانقضاض على دعائم القوة فى المجتمع والأسباب الكفيلة باستقلاله فى السياسة والتوجيه ، والاقتصاد .

* * *

والحافز أذن على احتلال البلاد التى تخلفت عن التقدم الصناعى فى افريقيا وآسيا والتأثير عليها هو الجانب الاقتصادى وحده . وهو جـــانب النظام الرأسمالى الأوروبى . لأن الاتجاه الآخر المقابل له لم يكن ذا قوة محركة وذا فاعلية فى الأحداث العالمية الا بعد الثورة « اللينينية » فى روسيا عقب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ ، وان كان وجوده الفلسفى قد أعلن عن نفسه فى فلسفة كارل ماركس قبل ذلك فى النصف الثانى من القـــرن التاسع عشر .

وأيضا لأن طبيعة النظام الراسمالى ذاتها تحمل على « النهب والسلب » فى صورة مقنعة من الاستغلال تلبية لعامل الطمع والجشع الفردى .

ولكى نقف على ذلك يجدر بنـــا أن نحلل العناصر التى يتركب منهـــا سواء ما يتصل بطبيعته أو عوامل قيامه ونشأته ، أو بأهدافه واتجاهاته .

● **طبيعة النظام الرأسمالى الغربى :**

الميل الى تكوين طبقة فى المجتمع ، تستأثر بتداول المال واستثماره فى التجارة والصناعة ، وتحل محل طبقة النبلاء والأشراف فى التمتع بالنفوذ والسلطة ، بجانب حياة الترف واشباع الرغبات الشـــخصية . وبتكوين طبقة الرأسمالية ربة العمل وحدها يتميز من عداها فى المجتمع فى طبقـــة اخرى هى طبقة العمال . ويصبح المجتمع حينئذ طبقيا لا تقارب فيه ، بدلا من المجتمع القديم السابق عليه وهو مجتمع النبلاء والاشراف أصـــحاب المزارع الكبيرة والعزب والقرى فى مقابل الفلاحين العاملين فى الأرض بأجور سنوية أو المستأجرين لها حسب مشيئة علية القوم .

واذا كان المجتمع القديم يتميز بمجتمع « السادة » و « العبيد » فالمجتمع الآخر القائم على انقاضه يتميز بمجتمع الأثرياء ومن لهم حاجة الى المال عن طريق العمل .

● وفى الميل الى تكوين احتياطى من المال « متعطل » ضمانا لرأس المال.

العامل تكون وظيفته المساندة والمؤازرة دون أن يشارك فى استثمار جديد . والحافز الحقيقى لتكوين الاحتياطى من « عائد » المال العامل فى التجارة أو الصناعة هو الرغبة فى « التكديس » للمال مع تجنب الأخطار فى دفعه للعمل واستثماره فى مجالات أخرى قد لا تكون مأمونة العواقب .

● ثم أخيرا فى الميل الى القضاء على أصحاب الحرف والمهن الصغيرة الذين يعرفون بطائفة « الأسطوات » و « الرؤساء » وهى تلك الطائفة المنتشرة فى القرى والمدن قبل قيام الصناعات الآلية ، وتقوم بأداء الحرف فى محلاتهم لحساب أنفسهم أو لحساب الآخرين من التجار الوسطاء . واذا انتقلوا الى العمل عند الغير انتقلوا بأدواتهم الخاصة بهم على ان يقدم لهم صاحب العمل « مواد » العمل والصنعة ويصبح هؤلاء عمالا فى المصانع يذهبون للعمل فيها ولا يحملون معهم سوى طاقاتهم على الكد ، والحقد والكراهية على ذهاب استقلالهم .

***

● **الاتجاه الرأسمالى :**

وهذه الخصائص المميزة لطبيعة النظام الرأسمالى تتجه به الى :

● تركيز الثروة القومية فى يد قلة من أصحاب رؤوس الأموال ، عن طريق ايجاد شركات أو ادماج شركات بعضها فى بعض أو اقامة اتحادات للصناعة والتجارة وشئون المال ، مما يجعل الرقابة والاشراف والتوجيه لفئة قليلة هى مديرو الشركات وأصحاب الغالبية من الأسهم أمرا سهلا ، ليس فى مسائل الاقتصاد وحدها بل فى مجالات السياسة والنشر والاعلام .

وبذلك يتم لأصحاب رؤوس الأموال أن يكونوا أصحاب نفوذ وسلطة وبالتالى تتم لهم السيطرة فى توجيه الاقتصاد القومى للنفع الخاص ، والاستغلال غير المشروع يقوم على اهدار الكرامة البشرية والاستخفاف بالقيم فى المجتمع والقوانين الخلقية التى تصون علاقات الأفراد فيه من الانحراف والنجوة والتطيعة .

● والميل الى « تكديس » المال ، وتعطيل فائض القيمة ، وحجبه عن الاستثمار غير المأمون . وذلك عن طريق خصم نسبة مئوية من الأرباح السنوية ضم بعضها الى بعض فى صورة احتياطى عادي وغير

عادى . وقد يفوق رقم الاحتياطى بعد بضع سنوات رقم المال العامل فى الصناعة أو التجارة . ويترك بدون استثمار لتأدية مهمة « الضمان» وحـــده .

- والى الاقراض بالربا . فلكى يجمع بين هدف « الاحتياطى » من بقائه ضمانا للمال العامل وبين استرباحه يوضع جزء منه للاقراض لمـدد قصيرة الأجل قد تتكرر وبفائدة محدودة ، وتتولى البنوك عمليات الاقراض لما يسلم اليها من احتياطى الشركات المساهمة . وقـد يتبع الشركة أو جملة من الشركات فى اتحاد عام — بنك يقوم بعملية الاقراض وضمان التحصيل .
- والى زيادة البطالة فى القوى البشرية العاملة . لأن تجميد الاحتياطى وحجبه عن الاستثمار الا عن طريق القروض قصيرة الأجل بفائدة محدودة يجعل مجال العمل محدودا لا يساير نمو السكان فى المجتمع . وكلما زاد « الاحتياطى » سنة بعد أخرى كلما قلت فرص العمل . لأن المال العامل لا يتغير من جهة فرقمه ثابت ، ولأن حرص الأنانية من جهة أخرى يحمل على اكتناز المال وعدم النزول به فى مجالات هى عرضة للخســارة .
- والى استغلال الشعوب المتخلفة فى الاقتصاد والصناعة — وهى فى واقع الأمر الشعوب الأفريقية والآسيوية وأمريكا اللاتينية — سواء فى طاقاتها البشرية أو فى ثرواتها الطبيعية لأن مجال الاستغلال هنا مفتوح ومأمون من الأخطار . فيصدر جزء من الاحتياطى فى الصـناعـة والتجارة الأوربية الى بلاد هذه القارات ، بدلا من قروض قصيرة الأجل فى أوروبا نفسها ، كى يستثمر فى مرافق عامـة ، كعمليات المياه ، والانارة والتليفونات ، والسكك الحديدية ، والقنوات المائية لعبو سفن البحار والمحيطات أو فى استغلال المناجم الغنية : كمناجم الذهب والفضة والماس والنحاس والقصدير والحديد ، أو فى استغلال آبار البترول ، أو زراعة القطن والمطاط والشاى والسكر والكاكاو ، وأشجار الزيوت النباتية ... الى غير ذلك من مجالات الاستثمار التى تمدها الصناعات الأوربية بالآلات مع الخبرة الفنية فى صورة رؤوس اموال على ان يتكفل الوطنيون بأرخص الأجور بكل أنواع النشاط التى تؤدى الى وفرة الربح المغرى ، وتتكفل الحكومات المحلية بضمان

راس المال مع نسبة مئوية لربحه لا يقل عنها بحال ، ومع ضمان مـــدة طويلة للاستثمار فى غير منافسة وفى غير قيود على حركة الأرباح وحركات راس المال نفسه .

وهكذا يحصل راس المال الأجنبى من احتياطى الشركات الأوربيـــة الصناعية والتجارية على « امتيازات » فى الاستثمار تجعل منه مصدر احتكار واستغلال ، أشبه بالسلب والنهب ــ ولكنه سلب ونهب مشروع فى ظاهره ــ للاقتصاد القومى والطاقات البشرية للقوى العاملة فى البلاد المتخلفة .

- ولضمان بقاء هذه الامتيازات وبقاء الاستـــغلال الفاحش تبعا لذلك تتدخل الدولة الاجنبية صاحبة الشأن عسكريا لحماية راس المـــال الأجنبى ، وتفرض سلطانها بالخديعة أو بقوة السدح . كما حصل فى احتلال الهند ، واندونيسيا ، والهند الصينية ، ومصر ، وشـــمال افريقيا ، وشرق افريقيا ، وبلاد البترول وهى : ايران ، والعراق ، وشبه الجزيرة العربية .

- وحماية رأس المـــال الأجنبى بالاحتلال العسكرى يجر الى التدخل فى تغيير نظام المجتمع فى الاقتصاد ، وفى الادارة ، والقضاء ، والتعليم . وسياسة الحكم ، بما يصون الوضع الاستغلالى للمستعمر والرضا به من المواطنين .

وهنا من رواسب الاستعمار الحتمية :

- « النظام الحر » فى مجال الاقتصاد .
- « والنظام الديمقراطى البرلمانى » .. فى مجال السياسة .
- « والنظام العلمانى » .. فى مجال التعليم . .
- « والتشريع الغربى » ... فى مجال القضاء .

لأن البلاد التى صدرت رأس المال الأجنبى الى القـــارات الثلاث ــ أفريقيـــا وآسيا وأمريكا اللاتينية ــ فى القرن التاسع عشر وفى النصـــف الأول من القرن العشرين ، والتى أصبحت لها امتيازات ووصايات كانت البلاد التى تقدمت فى أوروبا صناعيا منذ بداية القرن التاسع عشر . وأولها انجلترا ثم كانت بعد ذلك بلجيكا وفرنسا والمانيا وهولندا ثم اسبانيا والبرتغال .

ونظامها الاقتصادى : كان النظام الحر او الـ Liberalism ونظامهـا السياسى : كان النظام الديمقراطى .

وبعبارة اخرى كانت البلاد صاحبة النظام الديمقراطى الرأسمالى .

* * *

● عوامل قيام الرأسمالية الغربية :

لم يصل النظام الرأسمالى فى الغرب إلى ما وصل اليه هناك الا بسبب عوامل ثلاثة :

(أ) الاصــلاح الدينى :

وبالأخص فى عهد « كالفن » . فقد جعل من « المسيحية » نظاما عاما للحياة ولم يقف بالاصلاح عند حد الكنيسة وطقوسها ، وعند حد تفسـير النصوص الانجيلية وجوازه ولا عنــد حد « الرياسة الدينية » وما يجب أن تكون عليه . بل تناول فى الاصلاح العلاقات الاجتماعية ، ومجال الحياة الاقتصادية . وفى مجال الحيــاة الاقتصادية بارك التطور التجارى ونظام المعاملات المالية على نحو ما صار اليه فى « المدينة .... » وكان يختلف عنه فى القرية : فبينما هنا كان نظام « التبادل » بين الحاصلات الزراعية والسلع المصنعة تصنيعا يدويا هو النظام السائد ، من غير وساطة ، اذا فى المدينة كان يسود نظام التجارة « ونظام القروض » على الحاصلات الزراعية والسلع المصنعة على الســواء .

وخضعت القروض « للفائدة » المحددة ، وراج أمرها كوسائل ميسرة لقضاء الحاجات وبرواج امرها زاد سعر الفائدة واصبحت تحقق أرباحا مجزية للمال . وزاد من انتشار التعامل « بالربا » اقرار « كالفن » له بعد أن كانت تنظر اليه الكنيسة — حتى على عهد « مارتن لوثر » — على أنه محرم ونظام غير خلقى فى استثمار المال .

وقد قامت أسر عديدة فى انجلترا والمانيا وهولندا وبلجيكا باستخدام الربا كعامل أساسى فى تنمية المال وجمعه ، وعرفت به وتجمعت لها ثروات طائلة عن طريقه .

واقرار التعامل التجــارى والمــالى على أســـــاس من الربا كان بدوره سببا فى انتشار حركة الاصلاح الدينى التى قادها « لوثر » و « كالفن »

وعرفت به « البروتستنتية » فى هذه البلاد : انجلترا — المانيا — هولندا — بلجيكـا . كما كان سـببا فى انشاء البنوك والتوسع فيها فيمـا بعد ..

(ب) الثورة الفرنسـية :

وكانت الثورة الفرنسية عاملا آخر فى تكوين النظام الرأسـمالى عن طريق « الحرية الفردية » التى كانت غاية رئيسية لها . فهذه الحريـة الفردية طرقت مجال العقيدة والفكر ، كما طرقت مجال السياسة والاقتصاد .. وفى دخولها مجال الاقتصاد عملت على ابعاد كل قيد تفرضـه الدولة على المال أو على العمل وحرصت على أن يبقى اختصاص الدولة هـو حفظ الأمن الداخلى والدفاع عن الحدود فقط . وحثت الدولة على بناء الطرق وتحسين وسائل النقل وفتح الحدود أمام الصادر والوارد ، وفرض الحماية الجمركية للانتاج المحلى . كل ذلك لخدمة التجارة والصناعة وتيسير أفضل الفرص للربح الوفير .

وأبعد سلطان الدولة عن رقابة الأسعار للمواد الخام والمنتجـات الصناعية ، وكذا عن رقابة الرعاية الاجتماعية وشئون الأجور للعمال . وفى الوقت الذى اتسع فيه نطاق الحرية الفردية لأصحاب رؤوس الاموال ضاق بالنسبة للدولة وللعمال معا .. وهنا تجاوزت الحرية فى الاقتصـاد مجاله الى السياسة والتوجيه عن طريق النشر والاعلان .

وأصبح الحكم فى واقع الأمر لرجال الأعمال دون غيرهم .. وأصـبحوا بذلك رجال السياسة فى الوقت نفسه ، واستخدموها لجمع الأموال وتكديسها وتركيز الاشراف عليها ..

وهنا واجهت الثورة الفرنسية التى كانت ضد طغيان الكنيسة وضد النبلاء والأشراف فى المجتمع السابق عليها ، طغيانا آخر ، هو طغيان المال واستبداد أصحاب رؤوس الأموال وكأنها نقلت « الطغيان » من طبقة الى طبقة أخرى حتى لكادت أرستقراطية المال تكون أقوى فى البغى والاذلال من أرستقراطية الطبقة وسلطة الكنيسة ..

(ج) التقدم الصناعى :

ويضاف الى العاملين السابقين عامل ثالث . هو عامل التقدم الصناعى عن طريق « ميكنة الصناعة » بدلا من الصناعة اليدوية فيسرت الآلة الانتاج

وزادت فى سرعته . وأمكن للصناعة عندئذ أن تقلل من نفقات المنتجات الصناعية ومن ساعات العمل التى تقتضيها ، وبالتالى أمكن لها أن تزيد فى الربح وعائد راس المال .

وقضت على الصناعات اليدوية لانها لا تستطيع منافستها فى الجودة والكم والسرعة ، وحولت أصحاب الحرف الى عمال بالأجر يذهبون الى المصانع وهم يحملون الحقد بسبب ضياع استقلالهم واخراجهم من المشاركة الفعلية فى الصناعة وارباحها واصبح رجال الصناعات اكثر حرية فى العمل واكثر افادة بالتقدم التكنولوجى لصالحهم الخاص .

واغرتهم وفرة الربح ، وجمع المال فشددوا على العمال فى مستوى الأجور وفى الرعاية الاجتماعية وفى ساعات العمل اليومية وضغطوا على أثمان المواد الخام وتكلفة انتاجها ونقلها فى سبيل زيادة أخرى فى عائد راس المال وتكوين مدخرات احتياطية له قد تفوقه عدة مرات .

كما مالوا بسبب ذلك أيضا الى « التركيز » فى الاشراف على المال وتداوله . وما كاد يمضى الثلث الأول من القرن التاسع عشر حتى بدت واضحة أزمة العلاقات فى المجتمع الأوروبى الصناعى تهدد بالحرب الأهلية السافرة ، بعدما تفاقم خطر « اكتناز » المال فى يد قلة ، وأضرار الحرمان من المال والتعليم والرعاية الصحية فى جانب الكثرة من الملايين .

وقد تحولت « جمعيات العمال » التى قامت اصلا لرعاية المهن والحرف الصناعية فى مستواها الفنى بين العمال ، واستهدفت ترقية هذا المستوى وتنظيم المراحل والوسائل لبلوغ درجة قصوى فيه : الى « نقابات » تدافع عن مصالح العمال فى المصانع ضد أصحاب رؤوس الأموال فيها فى مستوى المعيشة وفى حق التعليم لأبنائهم وفى حق الرعاية الصحية والاجتماعية فى المساكن ووسائل الانتقال وتحديد ساعات العمل اليومية وتنظيم الاجازات الاسبوعية والسنوية .

ودعت هذه النقابات العمال الى التكتل ، كما دعت الى انشاء هيئات تحكيم بينهم وبين اصحاب رؤوس الأموال . وبذلك ظهر انقسام المجتمع الأوروبى الصناعى الى كتلتين قويتين متناقضتين ، أو متضاربتين ومتصارعتين :

● احداهما قوية فى المال وقليلة فى العدد : وهى طبقة اصحاب رؤوس الأموال .

● والأخرى قوية بالعدد وبالعمل الفنى : وهى طبقة العمال أو الفقراء المحرومين .

وبينما الطبقة الأولى تمارس صنوف الترفيه المختلفة فى حياة العبث والمجون ، وتستمتع بالتعليم فى مدارس خاصة بها ، وكذلك بالسكنى فى أحياء قاصرة عليها — اذا بالطبقة الثانية تواجه شقاء الحياة من أجل لقمة العيش ، والجهل والأمية ، والقصور فى المساكن المتواضعة مع الاكتظاظ فى عدد المقيمين فى مسكن واحد أو غرفة واحدة فى أحياء نائية عن المدينة او فى أطرافها ، تنقصها وسائل النقل والمرافق العامة المختلفة .

وما أن ابتدأ النصف الثـانى من القرن التاسـع عشر حتى أعلنت الماركسية ميثاقها من سنة ١٨٤٨ . وهو برنامج للعمل من أجل حقـوق الطبقة العاملة قبل أصحاب رؤوس الأموال .

وبعد ذلك بعشرين عـاما أعلنت الحرب على « الرأسمالية » فى كتاب « رأس المال » سنة ١٨٦٧ وبشرت بفنائها وانهيارها الحتميين ، ودعت الطبقة العاملة الى مشروعية وسائل العنف والتخريب واثارة الفتنة والقلاقل ضد أصحاب رؤوس الأموال وضد النظام الديمقراطى الرأسمالى ، وطلبت الحاق الأضرار بالانتاج عن طريق الاضرابات المتكررة عن العمل حتى يعجل بسقوط هذا النظام طالما سقوطه حتمى طبقا لقوانين المجتمع وشواهـد التاريخ التى استخلصتها الفلسفة الماركسية وأسمتها بـ « الاشـتراكية العلمية » .

* * *

النظـــام الاشـــتراكى

ومنذ كشفت « الماركسية » عن برامجها وأهدافها عرفت باسم « النظام الاشتراكى » . وأصبح هذا النظام يستهدف :

تمكين الطبقة العمالية من حقوقها بتحويل المجتمع الرأســمالى الى مجتمع عمالى .

الصراع الى النهاية مع النظام الرأسمالى وعدم مهادنته فى أية صورة من الصور .

القضاء على الملكية الخاصة قضاءا تاما ، وتمكين المجتمع أو الدولة من الثروة القومية .

معاداة كل الجهات أو الطوائف التى كانت تساند النظام الرأســمالى وابعادها عن التأثير فى المجتمع .

ومن ذلك ، معاداة الدين ورجاله ،ومعاداة الكنيسة ونظامها ، ومعاداة اصحاب الاقطاع ورجال الأعمال وارباب المصـــانع ، ورواسب النبـــلاء والأشراف ، والبرجوازيين الذين كانوا يتولون الحكم لصالح الرأسمالية .

وفى الوقت نفسه الاعتماد على العمال والفلاحين والجنود باعتبارهم أصحاب المصلحة والحقوق الشرعية فى المجتمع الجديد .

***

وقبل قيام « الماركسية » كانت هناك اتجاهات اشتراكية تدعو الى العناية بالعلاقات الاجتماعية والحد من الأنانية والفردية والتزام ذا وزن أرجح من الفرد وفى مواجهته وبحيث يصبح نقطة البداية والنهاية .

وكان من بين هذه الاتجاهات اتجاه الفلسفة الوضعية ـــ التى أنشأها « أوجست كومت » ـــ فى أعقاب الثورة الفرنسية فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وعلى أثر الفوضى العقلية والتوجيهية التى أوجدها «فراغ» ابعاد الكنيسة والنبلاء عن قيادة المجتمع بقيام الثورة وفاعليتها .

والاتجاه الوضعى الاشتراكى استهدف فحسب مكافحة « سوء العلاقات »

فى المجتمع ، ولم يطلب مجتمعا عماليا كما لم يطلب نقل الملكية الى المجتمع ، بل طلب محاربة الاستغلال وتحقيق أهـداف الثورة الفرنسـية من : الحرية — والاخاء — والمساواة :

ركز على التربية الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، أكثر من التركيز على الغاء الملكية الخاصة .

ونادى بوجود الدين كعنصر أساسى فى التوجيه ولكنه دين الانسانية وليس دين النظام الكنسى .

وطلب الحث على أداء الواجبات أكثر من التنبيه الى الحقوق لأن كثرة الحديث عن الحقوق تحيى الاتجاه الفردى وتبعث الأنانية ، بينما التركيز على الواجبات يقوى الميول الاجتماعية ، وفى الوقت نفسه تؤدى الحقوق عن طريق أدائها .

وأكد الوظيفة الاجتماعية للمال ، واستبعد اطلاقا أن تكون المنفعة الفردية هدفه . وسوى فى أداء وظيفة المال ان فهمت على وجهها الصحيح بين الملكية الخاصة والملكية العامة . فطالما أصحاب الأموال — فى نظره — يقومون بالوظيفة الاجتماعية للمال فهم ليسوا شرا على المجتمع عندئذ . وتستوى أية حرفة فى المجتمع مع أية حرفة أخرى فيه وأى عمل يقوم به فرد مع أى عمل آخر يقوم به فرد آخر ، طالما أن العمل «واجب اجتماعى» وليس « مقابلا لأجر » . اذ الأجر الذى يحصل عليه الفرد فى نظر الاتجاه الوضعى هو لقاء « استهلاك » فى سبيل أداء العمل . فالعمل نشاط انسانى لا يقيم بأجر بحال .

ولكن سوء وضع العمـال الاجتمـاعى ، والاقتصادى ، والصحى ، والتعليمى جعل النظام الاشتراكى الماركسى محببا الى انفسهم وأداة للربط بينهم فى كفاحهم ضد طغيان الرأسمالية . ومن هنا وجد رواجا فى بـلاد المجتمع الصناعى : انجلترا — فرنسا — وبلجيكا — وهولندا — والمانيا . حتى عام ١٩٠٣ وانعقد مؤتمر الأحزاب والروابط الاشتراكية فى لندن وحضره « لينين » و « برنشتين » وانقسم أعضاء المؤتمر حول النقاط الآتية :

● الغاء الملكية الغاء تاما ، أو الاكتفاء بنقل المصادر الرئيسية للانتاج للملكية العامة وابقاء ما عداها فى الملكية الخاصة .

- الايمـــان بالماركسية كعقيدة والتضحية فى سبيلها كشرط من شروط عضوية الأحزاب الاشـــتراكية . أو الاكتفاء بالاطـــلاع على الفلســـفة الماركسية .

- معاداة الدين ومحاربته ، أو قبوله والتسامح معه .

- استخدام وسائل العنف والاضرار والقلاقل فى الصراع ضد الرأسمالية ، أو الميل الى الدعوة المستنيرة بمبادىء الاشتراكية فى اقـامة المجتمعات الاشتراكية وبالتالى فى تقويض المجتمعات الرأسمالية .

فكان رأى الأكثرية بزعامة « لينين » فى جانب الشق الأول ، بينما رأى القلة بزعامة « برنشتين » فى جانب الشق الثانى .

وعرف اتجاه لينين بالبلشفية ، فى حين بقى لاتجاه الأقلية اســم : الاشتراكية الديمقراطية . وعندما قامت الثورة الروسية سنة ١٩١٧ ودخل لينين روسيا لتنظيم الحكم واقامة الحزب اطلق على الاتجاه الذى عـرف باسم البلشفية ، اسم : « الشيوعية » أو « اللينينية » .

وأصبحت الشيوعية أو مذهب لينين يتميز بالتشدد فى الانتمـاء الى الحزب الشيوعى ، وبالغاء الملكية الفردية وبالعداء للدين وباتباع مذهب « البرجماتزم » — أو مذهب المصلحة — فى مشروعية الوسائل التى تعين على تقويض الرأسمالية وفى اضفاء الطابع الخلقى على كل سلوك يحقق الشيوعية العالمية ، وفى المحافظة على « قيادة الحزب » .

بينما أصبح اسم « الاشتراكية » يحمل التسامح مع الدين ولا يصر على الغاء الملكية الفردية . بل قد يكتفى بالضريبة التصاعدية كما فى بـلاد « أسكنديناوة » : ففى السويد والنرويج والدنيمـارك تعنى الاشـتراكية بصنوف الرعاية الاجتماعية أكثر من العناية بالملكية العامة . وشعارها فى السويد : « الايمان بحلب البقرة الغنية » — يقصد بها الرأسمالية — أكثر من الايمان بملكيتها .

كما ينشد المهادنة فى الصراع مع الرأسمالية ، وسياسة « التعايش السلمى » ويرى أن القوانين الأخلاقية لا تخضع لمذهب « المصلحية » وانما تعود الى سمات الانسانية فى السلوك والعلاقات .

وسواء أكانت الشيوعية أم الاشتراكية فهما « رد فعل » للنظـام

الراسمالى ولمساوئه فى العلاقات بين الأفراد وفى خلق جو من العداء يحمل الصراع العلنى والحرب الأهلية فى المجتمع .

الا أن الشيوعية رد فعل « متطرف » والاشتراكية رد فعل « معتدل » .
ويصح أن يقال :

ان الشيوعية يسارية تماما فى مواجهة النظام الراسمالى اليمينى المتطرف .

والاشتراكية وسط فى الطريق بين نظامين متطرفين .

كما يصح أن يقال : ان الشيوعية موجة حماسية ، بينما الاشتراكية دفع معتدل مستنير :

واذن الاتجاه الاجتماعى الحديث يقوم نظامه عامة على أساس : « اعادة توزيع الثروة القومية » وتحقيق « العدالة الاجتماعية » ثم يتردد أسلوبه فى ذلك بين الغاء الملكية الخاصة الغاء تاما وبين المشاركة فى العائد ، والاشراف ، والرقابة .

ولولا مساوىء النظام الراسمالى ما قام فى وجهه النظام الاجتماعى (الاشتراكى) . ولولا تحكم فئة قليلة فى توجيه المجتمع لصالحها لما قامت ثورات الملايين ، ولما نشأت المجتمعات المعاصرة الاشتراكية .

ولولا تكديس المال واكتنازه وجعل حق تداوله فى يد طبقة معينة لما كان هناك تفكير فى اعادة « توزيع المال » والمطالبة بالعدالة الاجتماعية .

ولكنها الطبيعة البشرية ....

« ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى » (1)

« أن الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر (2) جزوعا . واذا مسه الخير (3) منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون » (4) .

---

(1) العلق ، ٦ ، ٧ (2) أى الفقر

(3) أى الغنى (4) المعارج : ١٩ — ٢٧

واذا كان النظام الرأسمالى يدفع الى تكديس المال ، والنظام الاشتراكى يطلب اعادة توزيعه فان نظرة الاسلام الى المال من أول الأمر تحول دون التكديس فطلب اعادة التوزيع .

فان جعل ملكية المال لله ، واستخلاف الانسان عليه ، يحدد فى نظر الاسلام الوظيفة الاجتماعية للمال . اذ بمقتضى كون ملكيته لله يجعل نفعه وعائده حقا مشتركا لجميع الافراد وبمقتضى استخلاف الانسان عليه يجعله امانة بيد الانسان يرعاها طبقا لمشيئة الله ، التى تتبلور فى تعاليمه على نحو ما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

ومشيئة الله فى تعاليمه ترسم الدائرة التى يؤدى فيها المال وظيفته وهى: الخير العام أو صالح المجتمع .

واختصاص الفرد بمال معين — كما فى الملكية الفردية — لا ينفى الوظيفة الاجتماعية للمال بدليل وجوب اخراج الزكاة منه ووجوب الانفاق منه على المصلحة العامة ان دعت الضرورة للانفاق منه ، ومانع الزكاة يقاتل فى سبيل اخراجها ، ومانع الانفاق العام عند الضرورة يلزمه الامام به .

● ومن هنا حرم القرآن الكريم أن يكون المال وسيلة لاستغلال الضعيف وصاحب الحاجة :

● فحرم الربا : ((**وأحل الله البيع وحرم الربا**)) (١) .

● وحرم أكل مال اليتيم : ((**وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ، انه كان حوبا كبيرا**)) (٢) .

● وحرم الرشوة : ((**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون**)) (٣)

● وحرم الغش فى المبادلات : ((**ويل للمطففين . الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ...**)) (٤)

---

(١) البقرة : ٢٧٥ (٢) النســاء : ٢
(٣) البقرة : ١٨٨ (٤) المطففين : ١ — ٣

• ومن هنـــا أيضـــا منع الاسراف : ((**يا بنى آدم خـــذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين**)) (١) .

• كما طلب اخراج الزكاة ((**كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يـــوم حصـــاده**)) (٢) .

((**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض**)) (٣) .

ورغب فى الانفاق العام ونفر من الشـــح فيه : ((**والليل اذا يغشى . والنهار اذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . ان سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأمـــا من بخـــل واســـتغنى . وكـــذب بالحســـنى . فسنيسره للعسرى . ومـــا يغنى عنه ماله اذا تردى**)) (٤) .

وقرن هنا الانفاق فى سبيل المصلحة العامة بالتقوى والايمان ، كما قرن البخل والامساك عن الانفاق فى ســـبيلها بالطغيان والكفر دفعـــــا للانفاق فيما وراء الزكاة الواجبة وتجنبا للشح فيه بما يسد على الانسان مسالك التبرير لعدم القيام بذلك .

ومن هنا كذلك نفر من تكديس المال وندد بالساعين لجمعه وعدم توجيهه للمصلحة العامة : ((**ويل لكل همزة لمزة . الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن فى الحطمة**)) (٥) .

وللحيلولة دون تكديس المال على نمط الرأسمالية أقر نظاما خاصا للارث يحمل على ((التفتيت)) للمال من جديد . فلم يورث المال كله للابن الاكبر على نحو ما كان يصنع المجتمع الأوروبى فى عهد النبلاء والأشراف ، ولم يزل متأثرا بهذا التقليد فى المجتمع الرأسمالى حتى الآن . وانما يوزع بحيث يبقى فى حياة الفرد الوارث فراغ للسعى والعمل الانسانى من أجل بقاء الفرد نفسه وبقاء المجتمع فى تماسكه ورسالته .

ولا أدل على أن هدف نظام الارث هو الحيلولة دون تكديس المال فى

---

(١) الأعراف : ٣١
(٢) الأنعام : ١٤١
(٣) البقرة : ٢٦٧
(٤) الليل : ١ — ١١
(٥) الهمزة : ١ — ٤

بدقلة — من ترغيب القرآن الكريم فى الوصية على نحو ما جاء فى هذه الآية :
« كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » (١) .

فقد رغب هنا بالتعبير : بـ « **كتب عليكم** » فى الاخراج من المال فى اللحظة الأخيرة من حياة صاحب المال ، زيادة على ما حث عليه طوال حياته من الانفاق فى أوجه الصرف المختلفة لمصلحة الجماعة . وذلك حتى يقلل من المتروك لورثته الذين سيكونون امتدادا له والذين أمامهم بحسب العادة فرصة واسعة لتنمية المال عن طريق سعيهم الانسانى وعملهم المشروع فيه .

وجعل ما يخرج من المال عن طريق « الوصية » بمثابة الحق الواجب اداؤه ، كما جعل القيام به صفة من صفات المتقين فقال فى آخر الآية : **« حقا على المتقين »** .

ولتأكيد المعنى من الوصية من أنه لتحقيق هدف نظام الارث — وهو الحيلولة دون التكديس — جاء فيما يشبه الاجماع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الفتح قوله : **« لا وصية لوارث »** .

اذ لو كان يراد من الوصية أن تكون لوارث تسبب المورث فى حياته ووجوده أصلا لأخلت الوصية بالغاية من نظام الارث وكانت من أسباب « التكديس » بدلا من المساعدة على « التفتيت » فتضاد الارث وتقاومه .

والحديث ليس مقيدا للآية . لأن ما جاء فى الآية من : الوالدين والأقربين — وان كان الوالدان من الورثة — لم يتسبب المورث فى وجودهم وفى حياتهم ، بل على العكس كان الوالدان هما السبب فى وجوده هو .

والحديث هنا كذلك معناه مطلق ، أى أن المنع فيه لا يرتبط بعدم موافقة بقية الورثة ، كما يفهم بعض الفقهاء . لأن موافقة الورثة عندئذ على الوصية لوارث منهم تعارض الهدف الأصيل لنظام الارث ، وهو حدود معينة ومحدودة : اتباعها طاعة لله ، والخروج عنها مخالفة لما أراده الله : **« تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين »** (٢) .

---

(١) البقرة : ١٨٠ (٢) النساء : ١٣ ، ١٤ .

والوالدان لا يفترقان اطلاقا عن الأقربين وان كانوا من أصحاب الحقوق في نظام الارث ، لأن العبرة في أنهما ليسا في امتداد السلسلة التي خرجت عن المورث . فاعطاؤهم عن طريق الوصية لا يؤدي الى تكديس في المال وان أدى الى مزيد من رعايتهما . فحياتهما بحسب العرف ليست طويلة ، ومجهودهما في سبيل السعي لتنمية المال ضعيف أو منعدم . ثم المال الذي يؤول اليهما لو بقي سرعان ما يتفتت من جديد على آخرين ليسوا من سلسلة المورث الذي أوصى لهما ، بمقتضى نظام الارث نفسه .

والقرآن يظل بذلك طليقا لايقيد آياته الا بعضها بعضا . كما يبقى الحديث على ظاهره من عدم جواز الوصية لوارث ، دون حاجة الى قيد آخر .

والفقهاء الذين نظروا الى اقرار بقية الورثة للوصية لوارث منهم ، أو الى عدم اقرارهم راعوا المحافظة على الود في العلاقات بين الورثة جميعا . وعدم ايجاد فجوة بين أعضاء أسرة واحدة خرجوا من ظهر رجل واحد. ولكنهم في الوقت نفسه أغفلوا استصحاب الهدف الأصيل من نظام الارث عند هذه النظرة .

وحديث سعد بن أبي وقاص الذي يروى على هذا النحو :

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني من وجع اشتد بي ، فقلت : يارسول الله .. اني قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولا يرثني الا ابنة لي . أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا . قلت ، فالشطر ؟ . قال : لا . قلت : فالثلث ؟ . قال : « الثلث . والثلث كثير . انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

وتحديد اطار الوصية عند الموت بمقدار الثلث من مال المورث يبغى فحسب سد حاجة الورثة من الارث ، كما تسد حاجة غيرهم عن طريق الوصية من المال المتروك نفسه . والعدل ذاته يقضي أن لاتسد حاجة الواحد على حساب حاجة آخر ، طالما هناك دوافع مشتركة لسد الحاجة ان لم تكن هذه الدوافع في طرف أقوى منها في طرف آخر .

فالقضية هنا قضية « العدل » في المجتمع وليست قضية « الهدف من نظام الارث » ... اذ لو خرج عن ماله كله في مصلحة عامة أشد احتياجا وأكثر اتساعا لم يكن آثما فيما خرج عنه ، ولم يكن مجحفا في حق ورثته .

ولو أن الورثة كانوا أقوياء مثل قوة مورثهم في ايمانه بالله حين خرج

عن ماله كله فى سبيل الله لرجبوا بما فعل ، لأنهم أيضا مطالبون بالانفاق فى سبيل الله والمصلحة العامة بحيث تتوفر أسباب القوة والمنفعة للأمة .

ولكن الوقوف بالوصية عند حد الثلث استهدف عدم اغضاب الورثة — على حسب الطبيعة البشرية — فى لحظة حرجة بالنسبة للمورث وهى لحظة الضعف فى نهاية أمره ولحظة توديعه من حياة الدنيا الى حياة القبر .

ولم يستهدف التحديد بالثلث وعدم الزيادة عليه — كما جاء فى الحديث — المحافظة على (الثراء) الموروث ليكون مقدمة لنمو جديد فيه يتحول الى تكديس فيما بعد . فالأفضل فى نظر الاسلام أن يسعى الانسان لانشاء المال وتحصيله من أن يرثه ويحيا فى ظله .

***

والاسلام اذن بنظامه المالى فيما أوجبه ورغب فيه ، وحرمه وطلب تجنبه فى التصرفات المالية وفيما أحل عليه ما أوجب وطلب ، أو حرم ودعا الى تركه — استهدف بقاء منفعة المال « شركة » بين أفراد المجتمع ، بحيث لا يصل أمرها الى تكديس فى يد قلة وحجب عن الكثرة ، كما فى نظام الرأسمالية ، بحيث لا يستدعى الأمر الى اعادة توزيع من جديد تحقيقا لمعنى « العدل » ورفعا للظلم والغبن .

***

ولكن اذا خرج الوضع عن نظام المال فى الاسلام فى مجتمع المسلمين ، وأتهرت الأمة الاسلامية على نظام آخر يصل بها الى ما يضاد هدف الاسلام من مجتمعه الأصيل فواجب المسلمين — عندما يستطيعون — ان يعودوا فى حياتهم وفى علاقات بعضهم ببعض الى ما دعا اليه الاسلام .

ولقد رأينا أن الغرب يوم استضعف الأمة الاسلامية فى افريقيا وآسيا منذ القرن التاسع عشر وبدء عصر الصناعة الحديثة ، دخل ديارها بجنوده واحتكر ثرواتها لمصالح مصانعه برؤوس أمواله وسخر أبناءها فى خدمة الاقتصاد الأوروبى بنفوذه السياسى — ثم أرسى قواعد نظامه الادارى والسياسى وثبت نظامه الاقتصادى الراسمالى ، وطارد القيم الأصيلة للمجتمع واستبدلها بالنظام العلمانى فى التعليم ونظريات الفقه الأوروبى فى التشريع وقيم التبعية للغرب فى التوجيه .

ولقد وصل الوضع فى كل مجتمع اسلامى افريقى أو آسيوى استعمره الغرب الأوروبى لصالح صناعته ورؤوس أمواله الى :

- تمكين الأجانب — وهم أهل حرب — من اغتصاب الثروة القومية بمساعدة القوة العسكرية وعلى الأخص مصادر الثروة المعدنية ، والأراضى الزراعية الجيدة والمرافق الحيوية العامة .
- تسخير المسلمين فى تنمية رؤوس الاموال الأجنبية ، بدون مقابل أو مقابل أجور زهيدة .
- استنزاف الدخل القومى باحتكار التجارة الخارجية فى المحاصيل الرئيسية الزراعية والسلع المصنعة للاستهلاك الضرورى .
- رهن الأراضى والأملاك العقارية بالفائدة المركبة .
- اقامة البنوك لتيسير الحوالات المالية واعادة نقل رؤوس الأموال الى

الخارج من فائض العائد الوفير لخدمة البناء الأوروبى على حساب افقار الشعوب الاسلامية من ثرواتها الخاصة وطاقات أبنائها البشرية ، وطالما أن عمليات التصدير والاستيراد تساعد على انجازها البنوك فى غيبة بنك مركزى للدولة فهى ثغرة واسعة لتهريب الأموال أو اعادة ما ورد منها وارباح الباقى من ثمرتها وعائدها .

ولقد كان القطاع الاقتصادى فى المجتمع الاسلامى المستعمر هو القطاع السرى المغلق الذى لا يدخله الوطنيون الا لأداء خدمات محددة . وفى غالب الاحيان تكون خدمات اضافية : فاللغة فيه اجنبية ، والفنيون فيه اجانب أو عملاء لهم ممن يدنيون بدينهم ، والاسلوب الاقتصادى اجنبى وهو الاسلوب الراسمالى ، والمال اجنبى ، والعائد منه للأجنبى .

والوطنى فى هذا القطاع كان الثروة ، والمجهود البشرى فى العمل . والعائد منه كان الفقر والمذلة على المواطنين .

ونتيجة لهذا الوضع فى المجتمع الاسلامى شاع :

- التعامل بالربا فى المعاملات .
- وانتشر شرب الخمور فى غير تستر .
- وجعل البغاء أمرا مشروعا .
- واختفى كثير من القيم الاسلامية ، وما بقى منها أصبح عرضة للسخرية كما اصبح حملتها موضع استهجان ، وموضع حملة من الكراهية والازدراء .

***

الطريق الى اعادة الوضـــع الاســـلامى

ولكن كيف يعود المسلمون بمجتمعاتهم الاسلامية ــ عندما يستطيعون ــ الى الوضع الاسـلامى الاصيل ؟

كيف يصلون فى الجانب الاقتصادى الى الحيلولة دون تكديس المال ، كما يطلب الاســـلام ؟

كيف يصلون فى هذا الجانب الى اعادة توزيع « النفع المشترك » فيه بحيث يصل الى جميع المواطنين ؟

وبذلك تتحقق وظيفة المال فى نظر الاسلام ... وهى وظيفه اجتماعية .

- كيف يصلون فى هذا الجانب الى منع التعامل « بالربا » .
- كيف يمكنون للقيم الاخلاقية من أن تسود فى مجتمعهم من جديد ؟
- كيف يكون للقرآن احترامه ؟

***

واجب المسلمين اذن **أن يبعدوا النظام الرأسمالى ، وما ترتب عليه من نظم سياسية ، وتشريعية ، وتوجيهية ،** عندما يستطيعون ، وقد استطاعوا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، أن ينهضوا وأن يسعوا **لاستقلال بلادهم .**

وقد نالت بلاد كثيرة استقلالها الرسمى بجلاء القوات الأجنبية ، بفعل الظروف العالمية والصراع المثنوى الذى كان احدى نتائج هذه الحرب ، والذى أصبح يميز النصف الثانى من قرننا العشرين ، وهو صراع الماركســية الشيوعية مع الرأسمالية الغربية الأمريكية والأوروبية .

ولكنهم بعد جلاء القوات الاجنبية بين وضعين : وضع القوة وتخرج

عليه جيل فأكثر من أجيالهم ، فى ظل الاستعمار وتدفع الى بقائه واستمراره قوى أجنبية لها مصلحة فى بقائه واستمراره دفعا غير مباشر ، وهـــو الراسمالية الغربية . ووضع آخر قد يعيد ما كان للمجتمع من قيم واصول فى الاقتصاد والسياسة والتشريع والتوجيه ، وهو ذلك الوضع الذى يزيل رواسب الاستعمار ويمكن من جديد للقيم الأصيلة .

وليس معنى جلاء القوات الأجنبية عودة أوضاع المجتمع الاسلامى ، وانما هو مقدمة قد يمكن لهذه الأوضاع عند صدق العزيمة وقوة الارادة . وشأن اعلان « أن الدين الرسمى للدولة هو الاسلام » لايكفى اعـــلانه لتصحيح أوضاع المجتمع ، وانما محاولة التطبيق فى اصرار هى السبيل العملى الوحيد .

وفى الاجابة على الأسئلة التى أثيرت هنا لاعادة أوضاع المجتمع الاسلامى يجب أن نشير الى حقيقتين :

أولاهما : أن معظم رؤوس الأموال فى الاقتصـــاد القومى لأى مجتمع اسلامى فى ملكية الأجانب (أهل الحرب) .

ونقول : (أهل الحرب) لأن المعاهدات التى كان يوقعها المستعمرون مع الحكام فى أى بلد اسلامى كانت معاهدات غير متكافئة ، وانما كانت تمثل املاء القوى على الضعيف . واذن ليس هؤلاء الاجانب أهـــل ذمة — وانها أموال مغتصبة أو فى حكم المغصوبة .

ثانيهما : أن بعض المواطنين شاركوا الأجانب فى هذه الأموال بفضـــل مساعدتهم اياهم اما عن طريق العمل السياسى أو الوظيفى ، واصبحوا أصحاب ثروات لم تكن لهم بنشاط انسانى كريم أو بنشاط اسلامى قام على رعاية وسائل الاستثمار المشروعة .

فكيف يعاد توزيع مصادر الانتاج الرئيسية فى هذه الأموال ؟ : أيعاد توزيع أعيانها على أعداد معينة من الأفراد المواطنين ؟ وكيف يعرفون ؟ أم تحبس على المواطنين جميعا ويوزع ريعها عليهم فى صورة خدمات عامة أو فى صورة عمل يعطون عليه اجرا ؟ وبعبارة أخرى : كيف توزع مثـــلا ملكيـــة البنوك ، وشركات التأمين ، وشركات البترول والمعادن ، وملكية المرافق

العامة كشركات الكهرباء والمياه وشركات النقل العـام وشركات التجارة الخارجية ... وغير ذلك من الملكيات الكبيرة التى لو قسمت على بعض دون بعض لأوجدت قسمتها حقدا وبغضاء فى النفوس فصراعا فى داخل المجتمع ، والتى كذلك يتعلق نفعها بجميع المواطنين وترتبط حاجاتهم الضرورية بها ، بحيث لو ملكت لأفراد معينين لكانت هناك خشية من الاحتكار فى الانتاج والتحكم فى الأسعار مما يضر بالبعض على الأقل ضررا مؤكدا ؟

ان المجتمع الاسلامى الاول واجه فى تطوره وجود هـذا المشـكل ، ولم يكن بالحجم الذى عليه الآن — ورأى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم واحدا من ثلاثة آراء :

- القسـمة .
- أو الحبس لبيت المال لصالح جميع المسلمين (١) .
- أو قسمة البعض وترك البعض الآخر ليحبس لبيت المال .

والذى يرجح الأخـذ بواحد منها هـو المصلحة العامة وحـدها . وما صنعه عمر رضى الله عنه فى سواد العراق يجعل من الخير المؤكد أن لا يقسم من المال ما عظم بحيث تؤدى قسمته الى ثراء البعض وحرمان البعض الآخر ، وأن يبقى « ملكية عامة » لنفع المواطنين جميعا .

ونهضات بلاد المسلمين وحركات تحريرها المعاصرة ان لم تشـبه الفتوحات التى وقعت فى الاسلام فهى أقوى منها ، لأنها استرداد لأموال المسلمين عامة من غير تعيين ، كانت مغصوبة بحكم القهر والغلبة .

وفى الفقه الاسلامى اذا قدر من اغتصب منه مالا على رد المغصوب وجب عليه رده وأعطى للغاصب ما أنفقه فى استثماره . فـان كان تحت « حربى » لم يعط شيئا . أى لايعوض عن الانفاق . فعين المغصوب لا عوض عنها عند الرد فى اى حال . والمسلمون جميعا فى المجتمع هم أصـحاب ما اغتصب منهم بطريق « الاقطاع » أو منح « الامتيازات » فى العقـود

---

(١) التأميم بمعنى الملكية العامة — ممثلة فى الدولة — لبعض مصادر الانتاج الرئيسية ، وللخدمات .. احدى الصور العصرية لنظام (الحبس) أو الوقف فى النظام الاسلامى ...

والاستثمار تحت ضـــغط المستعمر فهم جميعا أصـــحاب حق بالنفع من ثمرته .

واذن الوسيلة المتعينة هنا (لاعادة التوزيع) هى **« التأميم »** ، والتأميم — فى لغة الاقتصاد الحديث — تساوى « الحبس » أو الوقف « فى النظام الاسلامى » . لا تملك الرقبة أو العين لأفراد معينين ويوزع خيرها فقط وهو ثمرتها على الجميع . — ان رأس المال الأجنبى فى المجتمع الاسلامى الذى سانده الاستعمار وساعدته الامتيازات والاحتكارات على الاستغلال ، والنماء غير العادى ، والتحكم فى مصير المواطنين كى يظل متمكنا من أرباحه الفاحشة — **هو مال أعداء ليست لهم ذمة ولا عهد عند المسلمين .**

فان اضطروا تحت ضغط حركات التحرير والنهضة للشعوب الاسلامية الى الاستسلام كمـــا فى كثير من البلاد الاسلامية فأموالهم أشـــبه بأموال « فىء » . كما وقع مع « بنى النضير » على عهد الرســـول صلى الله عليه وسلم فى السنة الرابعة من سنى الهجرة ، فقد أجلوا عن ديارهم وتركوا أموالهم ، تحت حصار المسلمين لهم الذى استمر واحدا وعشرين يوما .

وان اضطروا بسبب القتال معهم الى الصلح — كما فى الجزائر ، واندونيسيا — فأموالهم أقرب الى أموال الغنائم كما وقع فى الفتوحـــات الاسلامية ، ومن بينها فتح العراق على عهد عمر .

وفى التعبير : بأن أمـــوال الأجنبى المستعمر أشبه بمال الفىء مـــرة أو بأموال الغنائم مرة أخـــرى تقريب فقط لوجوب الاستيلاء عليهـــا فى مجتمعاتنا المعاصرة وجعلها مالا وطنيا خالصا من الوجهة الاسلامية .

ولكن فى واقع الأمر الشأن فى الاستيلاء عليها بحسب نظر الاسلام أقوى وأدعى لأن جلها مال مظالم ، تكون — بسبب القهر والاخضاع — من مجهود المسلمين وما يملكون من ثروة ظاهرة وباطنة . وواجب على الامام أن يرد المظالم ، وواجب على المسلمين جميعا أن يستردوا ما أخذ منهم من غير حق ووقع فى يد أعدائهم ، عندما يستطيعون استرداده ، دون أن يدفعوا عوضا عما لحقها من أوجه الاصلاح أو الاستثمار .

واقل الاعتبارات فى وجوب الاستيلاء عليها من الزاوية الاسلامية أن يعتبر المال مال الأعداء أصلا ، والديار بحكم التسلط والغلبة ديار حرب ، فان أخرجوا بالسيف منها كانت غنائم ، وان أجلوا عنها بغير قتال تحت ضغط الحصار والتضييق كانت فيئا .

● **وأموال الغنائم والفيء** اختلف الفقهاء فى تمليكها :

فالشافعى وأحمد بن حنبل كلاهما لا يفرق فيما يجب أن يتبع نحوها : فبينما الشافعى يرى قسمة الغنائم والفيء ولو كانت ثابتة كالأرض والمعادن ، الا اذا تنازل من لهم استحقاق فيها عن القسمة يجعلها الامام وقفا عاما على خير المسلمين — اذا بأحمد بن حنبل يرى : أن الأرض تصير وقفا بنفس الظهور والاستيلاء (أى بسبب النصر) من غير وقف من الامام . وكذلك مالك يرى أن الأرض المفتوحة لا تقسم بل تكون وقفا يقسم خراجها فى مصالح المسلمين من أرزاق المقاتلة وبناء القناطر والمساجد وغير ذلك من سبل الخير ، الا أن يرى الامام فى وقت من الأوقات أن المصلحة تقتضى القسمة فان له أن يقسم الأرض وهذا الحكم فى الفيء بالقياس الأولى .

وبين الشافعى وأحمد بن حنبل يقف الفقهاء الآخرون فى الرأى مفرقين بين « الغنيمة » التى كانت مجهودا لحرب وقتال اشترك فيه من اشترك ممن عرض نفسه للموت ، و « الفيء » الذى جاء نتيجة لتدبير أدبى أو مادى ، دون أن يعانى فيه أحد مشقة القتال أو يعرض نفسه للفناء .

وبناء على ذلك : الأصل فى الغنائم أن تقسم ، ويجوز وقفها وحبسها على خير المسلمين كافة ، أما الفيء فالأصل فيه عدم التقسيم وابقاؤه ملكية عامة ، على أن يجوز للامام الاقطاع منه اذا اقتضت المصلحة العامة .

ويميل جمهور الفقهاء — كما يحكى ابن القيم — الى « الملكية العامة » عن طريق الوقف فى الغنائم والفيء معا ، على أن يترك للامام جواز التقسيم ان رأى مصلحة عامة فى ذلك .

ويستدلون بما صنع عمر فى سواد العراق ، بعد أن استشار عليا فأشار بقوله : « دعه يكون مادة للمسلمين » !

وبعد أن قال له معاذ : « ان قسمتها — أى الأرض — صار الريع العظيم فى أيدى القوم يبيدون فيصير الى الرجل الواحد أو المرأة ، ويأتى قوم يسدون من الاسلام مسدا ولا يجدون شيئا ، فانظر أمرا يسع أولهم وآخرهم » .

والذى نازع عمر فى عدم التقسيم كان بلالا وأصحابه وطلبوا أن يقسم بينهم الأرض التى فتحوها ، فكان رد عمر : « هذا غير المال — المنقول — ولكن أحبسه « فيئا » (يكون شأنه شأن الفيء) يجرى عليكم وعلى المسلمين » .

فقال بلال وأصحابه مرة أخرى : اقسمها بيننا ! .

فقال عمر : اللهم اكفني بلالا وذويه .

ويروى أن الصحابة جميعا وافقوا عمر على رأيه ، فترك الأرض دون أن يقسمها وجعلها ملكا عاما للمسلمين جميعا ، يوزع عليهم عائدها .

ولم تكن هناك استطابة لنفوس المستحقين وهم الذين شاركوا في القتال ، ولم يتم الوقف والتمليك العام برضاهم . وهنا يرى جمهور ائمة الفقه أن لا حاجة للامام عند وقف أموال الغنائم وجعلها ملكية عامة ، لرضا المحاربين .

والذى رآه عمر والصحابة فى الغنائم — وأموال الفىء بالأولى — من جعلها ملكية عامة ليس فيه مصادرة أو ايقاف لما استهدفت آيات الغنائم والفىء فى القرآن من قوله :

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل أن كنتم آمنتم بالله » (١) .

« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٢) .

فالتخصيص فى هذه الآيات لا يتحتم أن يكون بتقسيم « الأعيان » وتمليكها لمن خصصت لهم ، بل يحتمل أن يكون بتوزيع منفعتها ، وذلك لا يوجب تملكيها ملكية فردية . فاللام « لـ » الداخلة فى هذه الآيات على من لهم تعلق حق بالغنائم والفىء وان كان مدلولها الأولى انها للملك ، فالملك نفسه لا يستلزم أن يكون ملك : « رقبة » بل يحتمل أن يكون ملك «منفعة» .

ويرجع ذلك : أولا — بصفة عامة — الى أن ملكية المال فى نظر الاسلام على سبيل الحقيقة هى لله وحده ، واسناد المال الى الانسان هو اسناد استخلاف وأمانة أو اسناد انتفاع واسترفاق .

وثانيا : ان من ذكروا فى آيات الغنائم والفىء هنا ليس بينهم شخص سوى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأما من عداه فاما بالنوع كذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، واما ما قصد منه المصلحة العامة فى تمحضها ، وهو الله جل شأنه .

---

(١) الانفال : ٤١ (٢) الحشر : ٦ ، ٧

وقصد المصلحة العامة ، وذكر المستحقين بالنوع يكاد يؤدى الى ضرورة « حبس » المال وجعله ملكية عامة ، على أن توزع منفعته فى المصارف التى خصصت وحددت فى هذه الآيات .

وصنيع عمر فيما خصه من أرض خيبر — وهى من أموال الغنائم — من نقل ملكيتها الفردية الى ملكية عامة يشير الى امتلاء نفس الرسول عليه السلام ونفسه معا بالروح التى توحى بها آيات القرآن السابقة فى شأن الغنائم والفىء .

فيروى الجماعة عن ابن عمر أنه قال :

« ان عمر اصاب أرضا من أرض خيبر فقال : يارسول الله .. أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط انفس عندى منه ، فماذا تأمرنى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« ان شئت حبست أصلها وتصدقت بها » فتصدق بها عمر « أى وقفها » على أن لا تباع ولا توهب ، ولا تورث — فى الفقراء ، وذوى القربى ، والرقاب (تحرير الانسان) والضيف ، وابن السبيل ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير متمول » .

فهذه أرض بعد أن تملك رقبتها بالقسمة عاد فجعلها ملكية عامة .

ولولا مراودة المال وفتنته بعض نفوس معينة على عهد الرسول والصحابة ، ولولا مواساة الجروح والتعويض عن المشاق والمخاطر فى ذلك الوقت بصفة عامة ، ولولا التشجيع على استمرار الجهاد فى سبيل الله ، الى أن يكتب للمسلمين النصر المبين والعزة والغلبة ، ولولا تأليف بعض القلوب التى تقع تحت تأثير « التردد » حتى لا يستغلها عدو متربص ، أو تفت بضعفها فى عضد المحارب المخاطر : لولا ذلك لوجدنا ما يؤول للمسلمين من أموال الأعداء عنوة أو بغير عنوة يبقى للمسلمين جميعا حاضرهم اليوم ومن يجىء بعدهم غدا ، وتربيهم من مشاهد المغالبة والكفاح وقصيهم عنها .

فيروى أحمد بن حنبل فى مسنده عن مالك بن أنس انه قال :

« كان عمر يحلف على أيمان ثلاث : والله ما احد احق بهذا من احد ، وما انا احق به من أحد ، والله ما من المسلمين أحد الا وله فى هذا المال

نصيب ، الا عبدا مملوكا . ولكنا على منازلنا من كتاب الله ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم : **فالرجـــل وبلاؤه فى الاسلام . والرجـــل وقدمه فى الاســـلام . والرجل وغناؤه فى الاســـلام . والرجل وحاجته** . والله لو بقيت لهم لأوتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهـــو يرعى مكـــانه » .

● ورأس المال الأجنبى فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة لم يكن مالا خالصا للأعداء ، وانما أضيف اليه ظلما جهد المسلمين وتسخير طاقتهم على غير عرفه ، وفى غير رعاية لبشرية فيما أخذوا من أجر أو قدموا من عمل ، كما أضيف اليه مغصوب من مال المسلمين عامة أو من أفراد قد انقرض عقبهم .

وهنا يكاد يكون من الواضح فى الاسلام جعل هذا المال كله وقفا وملكية عامة لصالح الجميع يتولى « بيت المال » أمره .

فان كان قد دخل مال الأعداء مغصوب معين فى كمه ونوعه وفى شخص من اغتصب منه يجب رده له أو لعقبه ان وجدا .

ولا سبيل اذن للمجتمعات الاسلامية المعـــاصرة من أمرين معـــا لا يحتمهما الاســـلام :

أولا : تسلم مال الأعداء وهو رأس مال الأجنبى الذى جبـــاه الأجنبى باســـــتعماره .

ثانيا : ابقاؤه ملكية عامة .

وطريق ذلك هو « الحبس » فان أخذ العدو عوضا عنه فذلك لتفادى الحرب معه والتفرغ لاعادة البناء فى المجتمع .

***

وعن طريق « الحبس » او الملكية العامة يمتنع الاقراض « بالربا » أو يقل الى ان يمحى كلية ، لأن الذى أوصل الى الاقراض بالربا هو مبدأ « الاحتياطى » لرأس المال العامل فى النظام الاقتصادى الرأسمالى . فعندما يتضخم الاحتياطى ويتكدس ، فلكى يجمع بين أداء وظيفته كضمان لرأس المال العامل وبين استرباحه ، يقرض جزء منه — على حسب الاحوال — بفائدة محددة الأجل قصير قد يتكرر كل شهر أو ثلاثة أشهر أو ستة مثلا .

وكثيرا ما تنشىء الشركات الكبيرة بنوكا أو تسهم فى بنوك لهذه الغاية نفسها ، أو تسهم فى شركات للتأمين بنسبة معينة تستقطع من الاحتياطى كل عام لتكوين رأس مال جديد يضاف الى هذا الاحتياطى .

ولكن الملكية العامة — فى نظام اقتصادها — لا تقوم على مبدأ « تجميد احتياطى » كضمان لرأس المال العامل ، وانما الضمان هو العمل الانسانى نفسه ، ولذا يدفع الى استثمار (الفائض) كله من رأس المال : وهو ما تبقى من « العائد » بعد خصم تكلفة الانتاج والاستهلاك من اثمان السلع المبيعة ، وبذلك يضيف نظام الملكية العامة استثمارات جديدة متعددة تدر عائدا جديدا وفائضا لهذا العائد ، فمال الملكية العامة اذن مستمر فى حركته ، فى الانشاء والزيادة الاستثمارية .

ولا يستطيع أن يفعل ذلك النظام الراسمالى ، لأن ملكيته ملكية خاصة تخشى من « المغامرة » فى الاستثمار الجديد ولا يعنيها الا الصالح الخاص فى ضمان رأس المال وزيادته بصورة حتمية مؤكدة ، ولذلك تتنوع « صنوف الاحتياطى » :

من احتياطى عادى ، واحتياطى غير عادى للمفاجآت ، واحتياطى للتأمين ضد الحريق والحوادث ... الخ ، وكل ذلك يعبر عن رغبة التكديس من جانب والسلامة من الخطر من جانب آخر ، بسبب هذه الفردية والأنانية .

***

● وعن طريق الحبس أيضا ، وحركة المال المستمر فى الاستثمار فى نظامه تزداد فرص العمل أمام المواطنين لانه لم يعد هناك احتياطى مجمد ، وانما هنا « سيولة » تمكن من التوسع فى شئون الصناعة ، والتجارة ، واستصلاح الأراضى الصحراوية ، واستزراع ما لم يزرع منها ، والكشف عن مصادر الثروة المعدنية واستغلالها كمواد خام أو مصنعة .

وزيادة فرص العمل أمام المواطنين تقوم بمهمتين أساسيتين :

● المهمة الأولى : مكافحة « البطالة » فى العمل : مع مواجهة زيادة نمو السكان المستمرة .

● المهمة الثانية : رفع مستوى المعيشة للأفراد بارتفاع الدخل القومى

نتيجة للتوسع فى الاستثمارات وزيادة مصادر الرزق ، والعيش فى الحياة .
ثم أن « الحبس » ذاته يحول دون تكديس الثروة .

أولا — لأنه ملكية عامة .

ثانيا — لا يخلف مالا احتياطيا .

ثالثا — لا يوصل الى « الاحتكار »

وطالما أن رأس المال الأجنبى — المغتصب — هو الذى تناولته الملكية العامة ، وقد كان ممثلا فى المصادر الضخمة الرئيسية فى الانتاج والضرورية لحياة المجتمع ، فان ما بقى بعد ذلك فى الثروة القومية لا يشكل خطر « التكديس » . فملكية الأراضى الزراعية موزعة على الملايين وليست على العشرات . وما كان فى التجارة أو الحرف الصناعية موزع أيضا على الآلاف وليس على الآحاد .

ولذا بقيت الملكية الخاصة بجانب الملكية العامة . حتى يقل الحقد والصراع من جانب ، ويظل الحافز الفردى فى السعى لتحصيل المال وانمائه قائما من جانب آخر ، دون ترتب أضرار عليه للغير .

فاذا ضم الى نظام الملكية العامة والخاصة على هذا النحو دفع بالقيم الأخلاقية الاسلامية فى سلوك الأفراد وفى علاقات بعضهم بعضا — بعد أن انتزع منهم مصدر الحقد والغل — على أساس من الايمان بالله ورسوله ، وهدى من كتابه فان الخطوات الى اعادة المجتمع الاسلامى الى وضعه الاسلامى تكون قد تحققت .

واذا أبعد الأعداء الحربيون عن السيطرة على الثروة الوطنية ، والتحكم فى الاقتصاد القومى ، يكون المجتمع الاسلامى قد تحرر بالفعل ، واستقل بسيادة نفسه .

واذا أبعد الموالون لأعداء الله دون موالاتهم للمؤمنين عن التأثير فى الاقتصاد القومى ، والسياسة ، والتوجيه للمجتمع ، وانتزعت منهم وسائل الضغط — وهى أموال مقتطعة أو نميت بوسائل غير شرعية فى ظل الحكم الأجنبى — يكون المجتمع الاسلامى قد أشار بوضوح الى « النفاق » و « المنافقين » وعاقبة أمرهم ليكون عبرة لغيرهم نحو سلوك مستقيم يقوم على خشية الله ومراقبة أمره .

واذا كان « الحبس » قد قام على أساس من التعويض ، وهو غير واجب — كما قدمنا — يكون المجتمع الاسلامى قد اتبع أسلوب التسامح ، وحرص على تجنب « الشبهات » فيما صنع .

ان هذا النظام الاقتصادى ، الأخلاقى ، والايمانى ، المتسامح والحريص على تجنب الشبهات ان حرص على أن لا يكون شرقيا ، ولا غربيا ، ولا رأسماليا ، ولا شيوعيا ، بل حرص على أن ينشأ فى ظل المجتمع الاسلامى بما له من دين وتاريخ ، ولغة ، هى لغة كتابه المجيد ، فهو خطوة واسعة لتطبيق الاســـلام .

***

ما هو النظام الاسلامى(1)
فى صورته المستحدثة

● تحدد نفسها بأنها : ملكية عامة فى مصادر الانتاج الرئيسية : منعا للتكديس وحرصا على عدالة توزيع النفع .

● وملكية خاصة لما عدا هذه المصادر : ابقاء على الحافز الفردى ، سواء فى الأراضى الزراعية ، أو فى الملكية العقارية ، أو التجارة ، أو الحرف والمهن الصناعية .

● **وايمان بالله وبدينه .**

● **ومساواة فى الاعتبار البشرى** : بين جميع المواطنين لا يفضل واحد الآخر الا بالعمل لصالح الكل .

● **وايمان بعلاقة الأخوة** ، والتعاون مع الشعوب النامية : الساعية لاعادة أوضاع مجتمعاتها الأصيلة ، وتصفية رواسب النظام الذى فرض عليها ، لأنه استتبع المذلة ، والفقر ، والجهل ، والمرض ، لها .. والتخمة ، والتكديس والافراط فى العبث ، والسخرية بالقيم الانسانية لأصحابها .

● **وكفر بالماركسية الشيوعية وما تدعو اليه :**

— من الغاء الأديان ومعاداتها أيا كانت منزلتها .

— ومن الغاء تام للملكية الفردية أيا كان مصدرها .

— والغاء للمقاييس الأخلاقية التى توضح الحلال والحرام فى ذاته ، والفضيلة والرذيلة فى ذاتها .

---

(1) النظام الاسلامى .. هو النظرية الاسلامية المطروحة فى مقابل النظريتين الرأسمالية والشيوعية .

ـ والغاء المشورة العامة من مختلف الأفراد والبيئات ، وقصرها على طبقة واحدة ، هى وحدها الأصلح للبقاء ، وأعمق جذورا فى الحياة ، هى الطبقة العمالية .

***

وان واجب علماء المسلمين أن يتقدموا الصفوف جميعها ، ليحولوا هذا النظام الى شبكة قوية فى العلاقات بين أفراد المجتمعات الاسلامية :

ـ فهو الحل الأمثل للمشاكل التى تركها الاستعمار الغربى فيها .

ـ وهو المقدمة الضرورية لاعادة « التوازن » فيها .

ـ وهو السبيل الوحيد الى الاستقلال وعدم التبعية الى الشرق او الغرب .

نعم ... يجب على علماء المسلمين أن يشاركوا مشاركة جدية :

● **بالفقه الاسلامى :** فى مشروعات القوانين الجديدة .

● **وبالفلسفة الاسلامية :** فى توضيح الأسس النظرية لهذا النظام .

● **وبالنصيحة :** فى تعميق الايمان بما دعا اليه كتاب الله فى الابقاء على الوظيفة الاجتماعية للمال .

● **وبتحرير الاقتصاد القومى :** فى كل مجتمع اسلامى على هذا النحو ، لا ليمكن للاسلام فى أن يعود نظامه فى المجتمع فحسب ، بل لنمكن « لتكامل اقتصادى تام » فى مصدر الثروة فى المجتمعات الاسلامية . ولا تسهم هذه المجتمعات عندئذ فى زيادة الدخول القومية ورفع مستوى المعيشة للمواطنين فحسب ، وانما تمكن كذلك من حل جذرى « لنمو السكان وتزايد النسل » وتخفيف الكثافة السكانية فى أية منطقة اسلامية ، لأن المسلمين عندما يسيطرون من جديد على مصادر الثروة سيؤثر بعضهم بعضا عند الحاجة الى العمل ، او الخبرة الفنية طالما العمل فى حاجة الى زيادة ، والخبرة الفنية متوفرة .

ان الله قد وهب المسلمين قرآنه الكريم هداية لهم ، ووهب بلادهم اعظم تكامل اقتصادى فى العالم من المواد الخام الضرورية . فكما وهبهم : القطن ، والمطاط ، والبترول ، وهبهم : مناجم الفحم والنحاس والقصدير والحديد والمنجنيز ، كما وهبهم أيضا جميع مصادر مواد الغذاء والكساء والقوة والمنعة .

● **وعندئذ تجتمع للمسلمين :**

أولا : قوة الهداية بكتاب الله وتمسكهم به .

وثانيا : قوة العدد والكيف للمسلمين .

وثالثا : قوة الاقتصاد فى تكامل مصادره ، وتعدد أنواعها ، وتغطيتها للحاجات المعيشية لسكان البلاد الاسلامية .

وهذه القوة مجتمعة هى التى ترهب الغرب والشرق معا ، وتؤلب الغرب مع الشرق فى الابقاء على « عزلة » البلاد الاسلامية بعضها عن بعض ، ومخاصمة بعضها بعضا ، وذلك اما بالابقاء على نظام الرأسمالية وسيطرته فى بعض البلاد ، او باقحام الأيديولوجية الماركسية الشيوعية ببعض البلاد الأخرى .

ولا مفر من أجل الاستقلال من السيطرة الأجنبية ، ومن أجل توادد المسلمين وتعاطفهم وتعاونهم ، من الرجوع الى النظام الاسلامى فى المال وهو الحيلولة دون تكديسه واكتنازه .

ان « الجامعة الاسلامية » .. التى بدأ الحديث عنها « جمال الدين الأفغانى » فى سنة ١٨٦٨ شرعت ملامحها تبدو فى الأفق ، وأخذت الدول العربية — فى ثورتها الناهضة ونهضتها الثائرة — ترسم الخطوط والمسالك على طريق المجتمع الاسلامى المنشود ، وتخطو نحو الأمل المرجو فى ثقة وايمان ، يعينها على أمرها ثبات الشعوب وعزيمة القادة المخلصين .

وعلى الله قصد السبيل .

***

الفصل الرابع

الشيوعية والدين

- الشيوعية :
  - الشيوعية كثورة
  - الشيوعية كمذهب
  - مبدأ النقيض
  - مبدأ التطور
  - مبدأ الواقع
- الدين :
  - دعوة الدين
  - سيادة الانسان
  - سيادة القيم الانسانية
  - نكسة الشيوعية
  - الدين والشيوعية

الشـــــيوعية

• الشـــيوعية كثـــورة :

قامت الثورة الشيوعية قبيل نهاية الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٧، لتقوض نظام المجتمع القيصري الروسي، وتقيم مجتمعا آخر يكون أكثـــر توازنا وانسجاما — في نظرها — من المجتمع السابق عليه، أو تنعدم فيه عوامل الاحتكاك والاصطدام بين الطبقات والافراد . قامت لتحقق المجتمع العمالي ذا الطبقة الواحدة زاعمة أنه اذا انعدمت عوامل الاحتكاك والاصطدام فيه، لم تكن هناك حاجة الى وجود القوة البوليسية، وهي القوة التي يناط بها صيانة الأمن الداخلي في المجتمع .

والثورة الشيوعية تدعى أنها لا تهدف — فحسب — الى اقامة مجتمع ذي طبقة واحدة تنعدم فيه عوامل الاحتكاك والاصطدام، بل تهدف أيضا الى اقامة مجتمع يتمتع بخلقية عالية وقيمة رفيعة، وهو الذي لا تدعـــو الحاجة فيه الى قوة حراسة خاصة وراء أفراد المجتمع، ولها ســـلطة تعلو كيانهم الشخصي .

وهذه الخلقية الرفيعة انما تأتى عن تحول المجتمع الى طبقة واحدة . ولا ينبغي أن تكون هذه الطبقة هي الطبقة الرأسمالية وحدها، ولا الطبقة الاقطاعية وحدها، لأن كلتيهما تعيش وتعتمد في حياتها على استخدام رأس المال أو الاقطاع، وليس على النشاط البشري الخاص لأفرادها . واستخدام رأس المال والاقطاع يستدعي بدوره ان يسخر الطاقة البشرية التي هي في حاجة الى أن تستمر كي تعيش، وهي الطاقة البشرية التي تمارسهـــا الطبقة العاملة . وبذلك لايقف تكوين المجتمع من احدى هاتين الطبقتين — الرأسمالية والاقطاعية — عند حد واحدة منهما، بل سيتطلب وجود طبقة

أخرى وهى الطبقة العاملة . واذن لكى يتكون المجتمع من طبقة واحدة يجب ألا يكون فى وجود هذه الطبقة ما يستلزم حتما وجود طبقة أخرى غيرها . وهذا لا يتحقق الا بأن يكون المجتمع مجتمعا عماليا ، من طبقة العمال وحدهم . فهذه الطبقة لا تعتمد فى عيشتها وحياتها على شىء آخر من مال فى صورة ما ، وراء نشاطها البشرى وممارستها هذا النشاط من طريق مباشر .

ولكى يصير المجتمع مجتمعا عماليا صرفا ومكونا من طبقة واحدة هى طبقة العمال — استعجلت الثورة الشيوعية الأمر وسلكت طريق «الانقلاب» فى تحول المجتمع الروسى ، وقضت على الطبقتين الأخريين : طبقة رجال الاعمال أو اصحاب رأس المال ، وطبقة أصحاب المزارع الواسعة أو أرباب الاقطاع . كما قضت على نظام الحكم الذى قام فى روسيا على اساس وجود هاتين الطبقتين قبل هذا الانقلاب ، وهو نظام الحكم القيصرى ، وكذا على كل ما سانده من مصادر المساندة وعلى الأخص الكنيسة الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية . ولأنها سلكت طريق الانقلاب فى استعجال تحول المجتمع الروسى من مجتمع ذى طبقات الى مجتمع ذى طبقة واحدة عمالية — ارتكبت العنف والاستبداد واراقة دماء عشرات الآلاف من أفراد المجتمع فى سبيل هذا التحول . ولذلك كانت ثورة « حمراء » . وجعلت « الدم » شعارها لأنها لا تتخلى — كعنصر أساسى فى وجودها — عن الانقلاب وما يستلزمه من اراقة الدماء .

ناوأت الاقطاع ، وناوأت رأس المال ، وناوأت القيصرية ، وناوأت الكنيسة . فألغت الاقطاع ، وألغت رأس المال ، وحولت ملكية الأراضى الزراعية وملكية المصانع الى ما أسمته « الدولة » وبذلك أصبح المجتمع الروسى فى جانب الاقتصاد مجتمعا « شيوعيا » . وألغت نظام الحكم القيصرى وجعلته حكما شعبيا أو عماليا . وبذلك أصبح هذا المجتمع فى الجانب السياسى مجتمعا ديموقراطيا أو « بروليتاريا » وألغت سلطة الكنيسة فأعلنت شعار العلمانية فى طابع الدولة ، وبذلك فصلت بين الكنيسة والدولة وجعلت سيادة الدولة فوق الكنيسة .

وأصبح المجتمع الروسى الشيوعى فى اتجاهه وفى توجيهه مجتمعا مضادا تمام المضادة للمجتمع السابق عليه . وحققت ثورة ١٩١٧ قيامه كحقيقة تاريخية . ولكن ، لكى يبقى هذا المجتمع بعد ذلك ، ولكى يبتعد أيضا عن الاضطرابات التى قد تثيرها رواسب المجتمع الماضى من عناصر النظام

القيصري في الحكم ، ونظام الرأسمال والاقطاع في الملك ، ونظام الكنيسة كسلطة دينية ، مما أسمتها جميعها « بالرجعية » ، عنيت الشيوعية بالفلسفة التي كانت هي نتيجة لها — وهي الفلسفة الماركسية — وبالدعوة اليها وبتحويلها الى « دين » و « وايمان » كما حولت المجتمع نفسه الى مجتمع ذي طبقة واحدة .

• الشيوعية كمذهب :

وهنا بشرت بالماركسية كمذهب فلسفي ، يعتمد على جملة مبادىء ، سبق أن استخدمت في الفلسفة المثالية في القرن الثامن عشر ، وكذا في الفلسفة الطبيعية والوضعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر . هي مبادىء « النقيض » في الفلسفة المثالية الألمانية ، و « التطور » و «الواقع» في الفلسفة الوضعية . وكل مبدأ من هذه المبادىء الثلاثة دللت به على القيمة العليا للشيوعية من جانب ، ومن جانب آخر على خفة وزن القيم « الرجعية » في نظام المجتمع السابق :. وعلى الأخص على خفة وزن الدين . وبذلك وقفت من الكنيسة المسيحية كسلطة موقفا ، ومن الدين على العموم موقفا آخر ، هو في جملته موقف عدم الرضا والمكافحة :.

• مبدأ النقيض :

ومبدأ النقيض استخدمه الفيلسوف الألماني **« نيتشه »** من قبل في التدليل على أصالة العقل الانساني وأسبقيته في الوجود ، وبالتالي على قدرته على الخلق وعلى حريته المطلقة التي لا يحدها «شاهد وحس» ولا «وحي» أو «قوة أخرى مغيبة» عن الشاهد والحس ، وعلى أنه لذلك يملي ولا يملى عليه ، وأن المجتمع الانساني ، والقانون ، والدولة ، والخلقية ، من آثاره ، وأن حياة الناس جميعا في روابط الأخوة الانسانية وفي ظل دولة عالمية هدف أخير لخالقيته ومجهوده .

واستخدم هذا المبدأ بعينه الفيلسوف الالماني المثالي الآخر **« هيجل »** في توضيح قيمة « العقل » الانساني وقيمة « الله » ، وفي أن وضع الله في الوجود هو وضع المطلق الذي يتجلى عنه المقيد وهو الطبيعة المشاهدة ، والذي يسعى نحوه ما خرج عن التقيد نوعا ما ، وهو « الدولة » « والقانون » « والأخلاق » وأن الله لذلك يوحي ، وأن على الانسان الطاعة لما يوحي به .

وخرج « هيجل » من استخدام مبدأ النقيض الى نتيجة هى :

ان سلطة « الوحى » فوق سلطة « العقل » ، وان الوحى والعقل معا فوق الطبيعة ، أو فوق ما يسمى بالواقع أو المحس .

وهذا المبدأ دلل به (كارل ماركس) فيلسوف الشيوعية — وهو فيلسوف يهودى المانى — على أن المجتمع سيتغير حتما الى مجتمع عمالى ذى طبقة واحدة ، اى الى مجتمع شيوعى . وساق التاريخ المادى فى توضيح أن هذا المبدأ ضرورى الوقوع فى المجتمع ، كما هو ضرورى الوقوع فى « التصور » و « الفكرة » . اذ باستعراض أوضاع المجتمع الانسانى اقتصاديا كان المجتمع « الملكى » أسبق أنواع المجتمعات فى ملكية المال ، فالمجتمع « الاقطاعى » . ثم تلا هذا فى الوجود « المجتمع الراسمالى » وبتحليل المجتمع الملكى — ككائن موجود — وجد أنه يتضمن طرفين متقابلين : يتضمن الملك من جانب ، ورجال حكومته المنفذين لأوامره ورعاياه أو عبيده من جانب آخر . ثم بالصراع بين الطرفين المتقابلين تحول احد الطرفين وهو الملك ، فى الطرف الآخر وهو رجال حكومته ورعاياه . وبهذا التحول نشأ الوضع الثانى للمجتمع وهو وضع الاقطاع . اذ أن ما كان للملك من ملك — وهو ملك الأراضى الزراعية — لأن الصناعة كانت حرفا فردية ولم تكن قد وصلت الى التطور الآلى على نحو ما عرف فيما بعد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى المانيا — انتقل الى رجال حكومته . وأصبح رعايا الملك السابقون وعبيده الآن زراعا ومسأجرين لهذه الأراضى .

ولكن هذا المجتمع الاقطاعى لم يبق على نحو ما وجد عليه ، ويستحيل أن يبقى على ما هو عليه تبعا لضرورة مبدأ « النقيض » ، فتحول الى المجتمع الراسمالى . اذ بتحليل وضع الاقطاع وجد أن مجتمعه ينطوى على طرفين متقابلين : أصحاب الأراضى الزراعية من كبار الملاك والمستأجرين لهذه الأراضى . وبالصراع بين هذين الطرفين تحول أحد الطرفين وهو طرف كبار الملاك فى الطرف المقابل وهو طرف المستأجرين ، وذلك بهروب أصحاب الاقطاع بأموالهم وتوظيفهم اياها فى المصانع مع تركهم الأراضى للمستأجرين أنفسهم .

وانبثق عن مجتمع الاقطاع وضع آخر للمجتمع وهو المجتمع الرأسمالى ، اى مجتمع أصحاب رؤوس الأموال الموظفة فى الصناعات الكبيرة .

وإذا كان المجتمع حتى الآن انتقل من وضع الى وضع مقابل له ، فالمجتمع الرأسمالى سينقلب ويتحول الى مجتمع آخر ، بناء أيضا على ضرورة مبدأ النقيض ، كمبدأ عام فى الوجود كله . ووضع المجتمع الذى سيتحول اليه المجتمع الرأسمالى هو المجتمع العمالى . لأن المجتمع الصناعى أو الرأسمالى ينطوى أيضا على طرفين متقابلين ، على القلة من أصحاب رؤوس الأموال وهم ملاك المصانع من جانب ، وعلى الكثرة من العمال الأجراء فى المصانع من جانب آخر . وبالصراع بين الطرفين سيصير الأمر الى العمال ، ويصبح المجتمع مجتمعا عماليا .

ومعنى أن الأمر سيصير الى العمال — حسب منطق استخدام «النقيض» فى دائرة المجتمع — أن ملكية المال المثل الآن فى المصانع سيئول الى العمال ، وسيصبحون هم أصحاب الصناعات ! !

والفلسفة الماركسية عندما استخدمت مبدأ « النقيض » فى دائرة المجتمع لاتكتفى بالصيرورة الحتمية فى هذا التقابل كما تدعى ، بل تضيف الى ذلك : الادعاء بأن انتقال المجتمع من وضع الى وضع النقيض له يصير فى انتقاله وتحوله من مرحلة الى مرحلة بالتدريج ، حتى اذا وصل الأمر الى نقطة معينة فلابد من «انقلاب» ليتم التحول والانتقال . وذلك كالماء فى تحوله الى بخار ، فانه يسير بفعل الحرارة فى تحوله من مرحلة الى أخرى ، ثم دفعة واحدة ينتهى الماء ، ويكون الأمر كله الى بخار .

ولذلك لا ينتظر المذهب الماركسى أوضاع المجتمعات ، وبخاصة وضع المجتمع الرأسمالى ، حتى تتحول الى المجتمع العمالى من ذاتها ، بل ينادى بالانقلاب وتدخل المؤمنين بالشيوعية فى تعجيل أمر هذا الانقلاب فى المجتمع .

والسؤال الذى يعقب به أى باحث على استخدام الماركسية مبدأ النقيض فى تبرير تحول المجتمع الى مجتمع عمالى هو : أحقيقة أصبح العمال فى المجتمع الشيوعى الآن هم ملاك الصناعات والأراضى الزراعية ، كما بشرت الماركسية الجماهير بفلسفة النقيض ؟

أيقف تحول المجتمع — بناء على مبدأ النقيض ، وأن الشىء ، أى شىء ، لا يلبث أن يصير الى نقيضه كلما وجد على حال خاص — عند حد المجتمع العمالى ؟ أم أن الحتمية والضرورة التى تراها الماركسية فى مبدأ النقيض كطابع عام له تدفع الملاحظين لأحوال المجتمع الى ترقب انبثاق

مجتمع آخر عن المجتمع العمالى يكون نقيضا له ، ثم عن هذا النقيض سينبثق مجتمع آخر هو نقيض له كذلك ... وهلم جرا ؟

فاذا سلبت ملكية المصانع من العمال فى مجتمع شيوعى وبقوا أجراء أو اشبه بالأجراء ، فما بشرت به الفلسفة الماركسية تحت استخدام مبدأ النقيض فى صيرورة المجتمعات يبقى فى نطاق « النظر والتصور » دون « الواقع » . وسنرى أنها تكافح « النظر » وتركز الايمان بـ « الواقع » .

واذا لم يترقب المجتمع الشيوعى — وهو المجتمع العمالى — زوال نفسه وفناءه وتحوله فى مجتمع مضاد له تماما — فانه عندئذ اما ألا يساير منطق الفلسفة التى قام عليها والتى يستخدمها فى تبرير وجوده وصيرورة وضع أى مجتمع اليه ، وهى الفلسفة الماركسية ، واما أنه بعد أن صار الى الوضع الذى ارتضاه زعماء الثورة البلشفية فى سنة ١٩١٧ عاد الى « العقيدة » التى لا تعلل بالمنطق والفلسفة ، واصبح لذلك مجتمعا ذا عقيدة لا تناقش ، وحينئذ لا يكون المجتمع الذى يضع « العلم » موضع العقيدة ، والذى يطلب الى أفراده مكافحة « الرجعية » فى صورة الايمان والاعتقاد ، أى ايمان وأى اعتقاد ، والذى يطلب اليهم « التحرر » دوما من الايمان والاعتقـــاد .

● **مبدأ التطور :**

أما مبدأ التطور فقد استعارته الماركسية من « داروين » ، واستخدمته فى التدليل على أن الحال التى يصير اليها الكائن الموجود أفضل من الحال التى كان عليها من قبل ، وأكثر قيمة وأولى بالتبعية . والمجتمع ككائن من الكائنات الموجودة سيصير فى تحوله من وضع الى وضع ، وعندئذ يكون وضعه التالى لوضع سابق عليه هو أفضل وأدخل فى معنى القيمة ، وأجدر اذن بأن يتبع . ومنطق ذلك أن المجتمع العمالى — وهو المجتمع الشيوعى — أفضل من وضع المجتمع السابق عليه وهو الرأسمالى ، وهذا أفضل من المجتمع الاقطاعى الذى تحول عنه ، والاقطاع أفضل من المجتمع الملكى الذى تقدم عليه .

ومن مبدأى « النقيض » و « التطور » برزت ظاهرة ملازمة لهما ، على أنها ظاهرة عامة فى الوجود ، وهى ظاهرة « التغير » يخضع لها كل كائن فى انتقاله من وضع الى نقيضه ، وفى تطوره من مرحلة الى مرحلة أخرى .

وبابراز هذه الظاهرة وبأنها مصاحبة لوجود كل شيء ، تحاول الماركسية ان تدعى أن ثبات « القيم » الاخلاقية في الحياة الانسانية أمر يضاد طبيعة الأشياء وطبيعة الوجود ، وأن القيم لذلك تتغير كما يتغير كل شيء . وان الفضائل في سلوك الانسان تختلف من وقت لوقت . وما يعد فضيلة في وقت لا يصح أن يبقى دوما على أنه فضيلة ، بل قد تكون الفضيلة في ضده .

ومعنى هذا الادعاء الذي تدعيه الماركسية عن طريق ظاهرة التغير — ان الذي ورد في رسالة الأديان أو قامت عليه الفلسفة الأخلاقية المثالية من مثل : أن « العدل » و « الحرية » الفردية والمحافظة على « حرمة » النفس والمال والعرض ، فضائل — قد يتحول الى رذائل ، وتكون الفضيلة في ضده حسبما تأتى به عوامل التغيير والتبديل في الحياة .

واذا كان مبدأ النقيض تقصد به الماركسية اقناع الناس بضرورة تحول المجتمعات الى المجتمع الشيوعى العمالى مهما طال الأمر ، وأن هذا المجتمع العمالى هو المصير المحتوم للانسانية — فانها تهدف من مبدأ التطور اقناعهم بأفضلية هذا المجتمع نفسه في القيمة وبذلك يكون اندفاع الناس الى قبول هذا المجتمع — وكذا الى السعى في تحقيق وقوعه ان لم يكن تم بالفعل في مجتمع ما — ليس لأنه القدر المحتوم للبشرية عامة ، ولكن لأنه الأفضل الذي لا يدانيه في الفضل مجتمع سابق عليه (٥)

كما تستهدف بظاهرة التغير التى تصاحب المبدأين ، تسفيه رأى الدين ورأى الفلسفة الأخلاقية المثالية في القيم والفضائل ، ورمى كليهما بالغباء وعدم الفهم لقوانين الوجود ، وبالتالى عدم مسايرة طبيعة الحياة (٦) ورجال الدين وكذا الفلاسفة العقليون المثاليون « رجعيون » في نظر الماركسية يقفون بالحياة عند خط معين . بينما غيرهم ينظر الى الأمام حسبما توحى قوانين الطبيعة ، ينظرون هم الى الخلف ويستمرون في نظرتهم الى هذا الخلف غاضين البصر عن ركب الحياة وسيره قدما .

وبهذا او ذاك تبنى الماركسية في قيمة المجتمع الشيوعى بمقدار ماتنهدم في القوى التى تقف في طريق اقبال الناس على التبعية له ، وفي مقدمتها الدين والمثالية العقلية . وهى لا تبنى من جانب وتهدم في جانب آخر بالادعاء على هذا النحو فحسب ، بل أيضا باستخدام مصطلحات تجذب الميل الى ناحية ، وتنفر من البقاء في ناحية أخرى . فهى تستعمل كلمة « التقدمية »

في جانب ما تدعو اليه ، وهو مصطلح جذاب . بينما تستعمل « الرجعية » في جانب ما تحول هدمه وتقويضه ، وهو الدين والفلسفة الأخلاقية المثالية .

ولكن الماركسية في تطبيق ظاهرة « التغير » على القيم الانسانيه تحاول الخداع في واقع الأمر ، كما اثبت نفس الشيء تطبيقها لمبدأ « النقيض » على المجتمع : اذ وقفت بهذا المبدأ عند المجتمع الشيوعي . وبذلك أوقفت سير المبدأ وحدث من اعتبـــاره كقانون عام للوجـــود له طابع الدوران والاستمرار فيما يدور فيه .

فالقيم الانسانية هي المستويات العليا في السلوك الانساني . هي النهايات لتطور الانسان في انســـانيته . واذا كانت هي نهـــايات لتطور الانسان في انسانيته فهي لاتقبل الزيادة ، وبالتالي لاتقبل « التغير » ، وتصبح عندئذ طرفا واضحا مقابلا لما عليه غير الانساني ، مما له طبيعـــة الحركة والحياة ، وهو الحيوان .

وكون القيم هي المستويات العليا في السلوك الانساني ، يتضح من تطور الانسان وانتقاله من مرحلة الى مرحلة حتى بلوغ المرحلة النهائية وهي مرحلة الرشد : فالانسان الطفل حيوان في سلوكه ، يتصرف طبقا للغريزة كما يتصرف الحيوان . وقلما يتدخل الشعور الانساني ، وهي خاصة الانسان، في هذا التصرف . وبالتدريج شيئا فشيئا يحل «الشعور» بجانب «الغريزة» في حياة الانسان أثناء سير تطوره ، حتى يتحكم الشعور ، عن طريق تكون العادات الانسانية المهذبة وعن طريق الفهم السليم لطبيعة الحياة — وفي داخلها طبيعة المجتمع — فاذا تحكم الشعور الانساني وكانت له سيادة على الغريزة أصبحت للانسان خاصة الانسانية وتميز تمييزا واضحا عن الحيوان .

وأهم ظاهرة ينحدر بها السلوك الغريزي هي « الانانية » وأهم ما يعبر عن الخاصة الانسانية هو « الجماعة » ، أو الاعتراف بالمجتمع اعترافا يبدو في التطبيق العملي كما هو يعيش في دخيلة النفس . والأنانية تنكـــر كل حق للغير في الوجود ، بينما الجماعية تدعو لدعم حق الغير في الوجود عن طريق التعاون فيما يحقق حياة أفضل للاثنين ، وفيما يدفع الأضرار والاعتداء عليهما .

وليست « القيم » الانسـانية الا « النماذج » العملية التي يتحقق فيها

معنى « الجماعية » كما توضح هى مظاهر التعاون المختلفة نحو حياة انسانية أفضل .

واذا كانت القيم هى النماذج فى السلوك البشرى ، واذا كانت هى التعبيرات عن الخاصة الانسانية التى يصل اليها بالتدريج ، واذا كانت هى التى تنطق بسيادة الشعور الانسانى والرشد الانسانى على الغريزة الحيوانية فى الانسان — فانها لا تتغير اطلاقا بعد ذلك . لأن الانسان اما أن يصير الى انسانية أو يبقى فى الحيوانية . والقيم — كما ذكرنا — هى التى توضح صيرورته الى الانسانية .

الانسان نفسه يتطور ويتغير نحو الانسانية . ولكن القيم ، وهى التعبيرات عن الانسانية ، باقية خالدة :

● مبدأ الواقع :

ومبدأ الواقع الذى عرف لـ « **اوجست كومت** » **ولـ « فيرباخ »** **ولـ « اشتين تال » أكدت الماركسية قيمته لتدفع به أولا وبالذات القوى المعادية — وهى القوى (الرجعية) — وبالأخص الدين والفلسفة الأخلاقية المثالية .**

مبدأ الواقع ينكر أن يكون لما وراء الطبيعة ، وهو الوحى ، وان يكون للعقل فى الطبيعة نفسها ، اعتبار فى المعرفة ووزن فى الحكم على الوجود وفى تخطيط سلوك الانسان وتحديد غاية المجتمع البشرى . اذ أن ما بقى به وحى السماء وتأتى به رسالة الاديان — فى نظره — خرافة ، وما يدركه العقل الانسانى باديء ذى بدء من نفسه ويحاول أن يصوز به الطبيعة التى يعيش فيها الانسان وهم وخداع .

ولذا فان (الواقع) — وليس غيره من دين أو عقل — هو الذى يجب ان يملى على الانسان ويلقنه ، ويجب على الانسان أن يتعلم منه أولا ويعطيه بعد ذلك . والواقع الذى نعيش فيه هو الطبيعة التى نحسها وندركها بأبصارنا وأسماعنا ونلمسها بأيدينا ، ونضرب فيها بأقدامنا . فلندع هذه الطبيعة المحسوسة تتكلم ، ولنسر فيها على هدى ما تنطق به لا على هدى الله ولا على نور العقل . فليس لله وجود اطلاقا ، وليس للعقل نور الا ما يشع عليه من منطق الطبيعة المشاهدة .

ليس الله موجوداً لأنه ليس هناك وجود وراء الوجود المادى . ولو كان له وجود مادى لأدركناه بالحس ، ونحن لا نـدركه بالحس ، فليس موجودا ، وليس للعقل وجود مستقل عن الجسم المـادى . ووجوده اذن مرتبط بالوجود المادى وتابع له ، فليس له استقلال حتى يكون له نـور واشـعاع منفصل عن اشعاع الطبيعة المادية ، وليس له منطق ينفرد بـه عن منطقها ، بل الطبيعة تنطقه فينطق ، وتحمله على التفكير فيفكر ، وتحدد له اتجاه التفكير فيتجه فيما يحدد له من اتجاه .

واذا كانت الطبيعة المادية هى الوجود ، واذا كان منطقها هو المعبر وحده ـــ فالمعرفة التى تحصـل عن طريق منطق الطبيعة هى المعرفة السـليمة اليقينية . والعلم بعـد ذلك ليس هو علم ما وراء الطبيعة ، وليس هو علم الوحى الدينى ، وليس هو تصور العقل الانسانى من نفسه . هو علم الواقع والطبيعة المشاهدة . والأجدر اذن بالعبادة ليس الله كما يدعو رجال الدين ، وليس الانسان كقوة مدركة ، كما يدعو رجال الفلسفة العقلية ، وانما الأجدر بالعبادة هو « العلم » ومحراب العـابد ليس الكنيسة ، وليس البحث « النظرى » بل هو « المعمل » الذى نجرى به التجارب على خصائص هذه الطبيعة المادية .

والحضارة الانسانية لا يكونها تراث الماضى الروحى أو العقلى ، بل يكونها فحسب ما ينتج عن هذه التجارب الطبيعية . يكونها « العلم » وما له من نتائج مادية فى حياة الانسان . و « الآلة » أبرز هذه النتائج ، والصناعة فى مختلف جوانبها من أفضال الآلة على الانسان . والحضارة الصناعية لذلك هى الحضارة الحقة التى يجب على الانسان أن يستمر على البناء فيها لتحقيق حياة أفضل .

ولكى تضفى الماركسية على « العلم » هالة من القداسة ، وتجعل له كيـان المعبود الذى يجب على العابدين أن يتقدموا فى عبادتهم ايـاه بقربان ـــ والقربان هنا الاسـهام فى نمو الحضـارة الصناعية ـــ دعت الشيوعية الى « الايمان » من جديد ، ودعتهم **الى « الاعتقاد » بتثليث آخر : العلم ، والمجتمع ، والدولة** وأصبحت الفلسفة الماركسية **دينا وعقيدة** .

وهنا يلاحظ انها بتأكيدها مبدأ الواقع لتقوض الدين والايمان ، انتهت من جديد ، عن طريق الواقع نفسه ، الى الدين والايمان . ولكن ليس الى

دين الله ، بل الى دين الطبيعة ، وليس الى الايمان بالله ، بل الى الايمان بمصنوع الانسان .

وتقديس العلم وتأليهه يجعل له سيادة على الانسان ، وليس فى خدمته . وتقديس المجتمع وتأليهه يدعو أفراده الى التضحية والافناء فيه دون انتظار جزاء منه . وتقديس الدولة وتأليهها يجعلها تطاع دون أن تناقش .

ليس هناك اذن الا الاله الجديد . والاله الجديد هو ذلك « الثالوث » الذى ادعت الماركسية أنه من واقع الطبيعة التى ترى وتشاهد مع انه نفسه لا يرى ويشاهد . فنحن لا نرى العلم ، بل نتصوره . ولا نرى المجتمع وانما نتصوره أيضا على أنه جملة من الروابط المشتركة بين الأفراد . ولا نرى الدولة وانما نحس آثارها فحسب فى «التنفيذ» . نحن لا نرى الا تجارب ، والتجارب ليست هى العلم ، بل هى مقدماته . ونحن لانرى الا أفرادا يحيون حياة آمنوا بها ، ويعيشون عيشة ارتضوها لأنفسهم أو أكرهوا عليها والأفراد ليسوا هم المجتمع ، وانما هم لبنات فيه . واللبنات فى البناء ليست هى البناء نفسه . ونحن لا نرى الا أفرادا مشرعين مقننين ، وأفرادا آخرين حارسين ومنفذين . والمشرعون والمنفذون من الأفراد فى خدمة الدولة وليسوا هم الدولة نفسها .

والاله الجديد فى الدين الجديد لا يوجد اذن فى الواقع المشاهد . وقد أنكرت الماركسية الله من قبل ، لأنه لا يوجد فى الواقع المشاهد . وبذلك تنكر بناء على تبرير خاص ، ثم تعود فتؤمن بما يقوم على ذلك التبرير الخاص ذاته .

وفى الدين الجديد ليست هناك خشية من اله الا اله العلم والمجتمع والدولة . والعلم والمجتمع والدولة من صنع الانسان ، بدليل أن الانسان البدائى يوجد من غير علم وغير دولة . فوجود هذا الثالوث وجود طارىء على وجود الانسان . واذن هو من خلق الانسان وليس من خلق نفسه . ويوم يبتعد عنه الانسان ، يوم يتوقف وجوده ، وتتوقف حياته ، ومن ثم يعتريه الاضمحلال فالفناء . فهو اله عاجز عن الخلق وان بدا فى صورة عملاق خالق . وهو اله لا يستغنى عن غيره ، وان بدا أنه يعطى الحياة لغيره . وهو بعجزه وباحتياجه فى واقع أمره لا يستطيع ان يوجه الانسانية الى الخير . هو لا يفتقد فحسب تمييز الخير من الشر ، بل مع ذلك يفتقد القوة الذاتية التى توجه اما الى الخير واما الى الشر .

العلم — وهو ركن فى الثالوث المؤله — يدفعه الانسان نحو الخير ونحو الشر ، وهو لا يدفع نفسه . وكذلك الشأن فى المجتمع والدولة يدفعهما الانسان — وهو القائد والموجه — نحو الخير ونحو الشر ، وهما لا يندفعان من ذاتهما نحو هذا أو ذاك .

واذن فالانسان الذى كان من واجبه فى هذا الوضع أن يكون معبودا أصبح عابدا . والماركسية بذلك لا تدعو الى « النكسة » فى الانسانية واسترقاق الانسان واستذلاله لـ « وثن » لا يملك لنفسه الحياة والاستمرار فيها مستقلا عن غيره ، فضلا عن أن يوجه غيره ويقوده . وانما فى الوقت الذى تفرغ فيه الماركسية قلب الشيوعى من الايمان بالله الخالق فتنزع منه الخشية ، تعوضه بدين وبايمان يدعوه الى الخير والشر سواء . لأن اله هذا الدين وهذا الايمان وهو « العلم » — كما حددته — لا يتصل بطبيعته ومن ذاته بخير ولا شر . طبيعته طبيعة محايدة .

والدين الذى بين الخير والشر ، لا تأمن الانسانية من سيادة الشر بين أتباعه . والاله المحايد بين الخير والشر ، قد يتقدم اليه عباده بالشر على أنه قربان ، أكثر مما يتقدمون اليه بالخير على أنه قربان ايضا .

ولكنها الماركسية تحرض الناس على « الانقلاب » باسم مبدأ النقيض ، وتخفى وجهها من توقع انقلاب فى المجتمع الشيوعى اذا ما صار اليه الوضع يوما ما .

وتحرض الناس باسم التطور على التنكر للقيم الانسانية والمستوى الانسانى الفاضل وتبشر فى الوقت نفسه — عن طريق فلسفتها — بحياة فضلى ومجتمع أفضل .

وتحرض الناس على انكار الله ، وانكار الدين ، وتضعهم أمام دين وأمام اله هو من صنع الانسان وليس خالقا له ، هو نفسه « جاهل » بمصير الانسانية رغم أنه « العلم » .

***

الـدين

● دعوة الدين :

أمـا الدين – فى مقابل الماركسـية – فانه يدعو الى الايمان بالله الخالق ، المستغنى عن غيره ، والمستمر فى الدوام ، والباقى الذى لا يتحول الى حال آخر أو وضع آخر ، والذى يعلو افراد الانسان جميعها ، هو للناس كلهم : ((**قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا**)) (١) . هو الذى حددت رسالته الخير والشر : ((**ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم**)) (٢) . ودعا رسوله الى الخير وحده : ((**وأن هذا صراطى مسـتقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سـبيله**)) (٣) . والخير الذى يدعو اليه الدين هو التعاون فى سبيل حياة افضل ((**وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**)) (٤) . والأخوة الانسانية : ((**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم**)) (٥) . هو عدم الغواية وعدم النزوع الى الشر وسلوك طريقه ((**ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين**)) (٦) .

الله رب الدين اذن يعلم الخير والشر ، كما يعلم الجهر وما يخفى ، ويريد الخير وحده ، لأن فى الخير سلامة البشرية وتعاونها واخاءها . وفى التعاون والاخاء ازدهار الحياة الانسانية ونماؤها .

● سيادة الانسان :

والله رب الدين يعلم الأرض والطبيعة كلها . ويقدر الطبيعة البشرية خاصة بين كائناتها ، على أنها لا تخضع الا لله وحده ، ولا تعبد الا اياه . وهى اذ تعبده وحده تسلم الى الخير وتفعله ، وتدرك الشر وتتجنبه . تسلم الى الانسجام والسـلم وتسعى نحوهما . وتدرك الخصومة والاضطرابه

---

(١) الأعراف : ١٥٨ . (٢) الاسراء : ٩ . (٣) الأنعام : ١٥٣ .
(٤) المائدة : ٢ (٥) الحجرات : ١٣ .
(٦) البقرة : ١٦٨ ، ٢٠٨ ، الأنعام : ١٤٢ .

وتحاول تجنبهما . وكما يقدر الطبيعة البشرية على انها تعبد الله وحده ، يقدرها ايضا على أنها يجب أن تسود على ما عداها من كائنات الطبيعة : ((**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**)) (١) ((**وهو الذى سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**)) (٢) . ((**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه**)) (٣) . ((**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه** .)) (٤)

وهنا فى نظر رسالة الدين ، يسعى الانسان الى ((العلم)) ، ((**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**)) (٥) ليسود به الانسان على الطبيعة ولكن لا ليعبد العلم ويؤلهه . ويسعى لبناء الحضارة المادية والصناعية . ((**وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**)) (٦) .. ولكن ليضيفها الى القيم الروحية والانسانية .

وهنا فى نظر رسالة الدين يسعى الانسان الى تكوين المجتمع . ((**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**)) (٧) . ليرعى أفراده ولكن لا ليفنى الأفراد فيه . ويسعى الى تأسيس الدولة : ((**اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**)) (٨) . لتقيم العدل والتوازن ، وتحفظ على رعاياها حقهم فى الحياة ، وتصون حرماتهم الشخصية من النفس والمال والعرض ، ولكن لا لتطاع دون مناقشة ، ويسلم لها الزمام ولو كانت جائرة أو سالبة للحرمات الشخصية من نفس ومال وعرض .

الدين لا يطلب من الانسان أن يعكس آية الحياة والوجود ، فيعبد من كان خلقا له من : علم ، ومجتمع ، ودولة . يريد له أن يظل طبيعيا يتصرف وفق قوانين الطبيعة نفسها ، طالما هو مانح الوجود والنمو والتطور لغيره — فأجدر بهذا الغير أن يكون فى خدمته وتبعيته .

---

(١) الاسراء : ٧٠ . (٢) النحل : ١٤ .
(٣) الملك : ١٥ . (٤) ابراهيم : ٣٣ ، ٣٤ .
(٥) الزمر : ٩ (٦) الحديد : ٢٥
(٧) التوبة : ٧١ (٨) النساء : ٥٩

• سيادة القيم الانسانية :

وسيادة الانسان التى يدعو اليها الدين هى فى واقع الأمر ليست فى سيادة هيكله المادى ونموه الحيوانى ، بل فى سيادة القيم الانسانية من : العدل ، والحرية ، والاخاء ، والمساواة ، وصيانة الحرمات الشخصية .. اذ لا يلحظ الدين فى الانسان فقط انسانيته وميزته البشرية . وهذه لا تتمثل الا فى القيم الانسانية وحدها .

واذن الدين يطلب من سيادة الانسان ، وسيادة القيم الانسانية ، استقرار السلم بين الناس ، وتحقق التوازن والعدالة بين الأفراد واشاعة روح الاخوة والتعاون .

ويجب أن يكون ما يأتى به الانسان بعد ذلك مما يحصله من علم ، وما يقيمه من مجتمع وما يؤسسه من دولة فى خدمة القيم الانسانية وسيادتها . فاذا عكس الوضع وأصبحت القيم الانسانية ، وأصبحت البشرية كلها فى خدمة العلم والمجتمع والدولة ، يومئذ لا يتحقق سلم ، ولا عدالة ، ولا اخوة ، ولا تعاون . يومئذ يسود الطاغوت وتسود النزوات وبالتالى يسود الاضطراب والقلق ، وهنا لاتخفق الانسانية فى رسالتها ، وانما الطبيعة نفسها تخفق فى التعبير عن قيمتها الحقيقية .

اذ قيمة الطبيعة فى أن يتجلى خضوعها للانسان ،

وقيمة الانسان فى أن يكون ذا مستوى انسانى فاضل ،

وقيمة الكون كله فى أن يدل على خالقه ، بما فيه من دقة وانسجام ، تحكمها قوانين لا شذوذ فيها ، وانما الشذوذ فى ادراك الانسان لها .

وهذا كله ما تسعى اليه رسالة الدين .

• نكسة الشيوعية :

ان الشيوعية هى تحول عبادة الانسان الى « وثن » يسخر ولايستطيع أن يسخر ويوجه غيره . وتحول طبيعة الانسان من طبيعة سائدة الى طبيعة مسودة ، ومن طبيعة حرة كريمة ذات مشيئة الى طبيعة يتحكم فيها من لا مشيئة ولا ارادة له ، لا استقلالا ولا تبعا ، وتسوى بين الخير

والشر فى التوجيه ، وتحول القيم الانسانية الى قوارب فارغة ، تملؤها بما ترغب ، لا بما يجب لصالح الانسانية وحدها .

والهها — وهو العلم — يتغير اليوم عنه بالأمس ، وسيغيره الغد القريب ثم الغد البعيد بعده — وقداسته بالأمس اذن لم تكن إلا تخيلا ووهما . وعبادته عندئذ كانت خرافة ، لأنه تغير اليوم عنه بالأمس . وقداسته اليوم ستصبح فى الغد أيضا تخيلا ووهما ، وستصبح أيضا عبادته خرافة ، لأنه سيتغير فى الغد عنه اليوم . وهكذا ..

● الدين والشيوعية :

ان الفرق بينهما هو الفرق بين دعوة طبيعية ، ودعوة هى نشاز عن الطبيعة . الدين يساير طبيعة الانسان وطبيعة الكون كله ، فحرص على الألفة والأخوة فى حياة الانسان ، على نمط ما يشاهد الانسجام فى الطبائع الكونية الأخرى . أما الشيوعية فهى دعوة الى الانقلاب والاضطراب . سلمها فى الحرب ، وحريتها فى الرق ، ومساواتها فى السلب، وأمنها فى الاثارة والقلق .

انها قامت على مبدأ « النقيض » . فالتضاد فى حياة مجتمعها يلعب الدور الأول ، وانسانها مردد بين طرفى النقيض .. هو بين الحياة والموت ، وبين القيد والانطلاق ، قيد فى الانسانية ، وانطلاق فى الحيوانية ، وبين الانسان واللاانسان ..

ان الدين يدعو الى الوئام بين الروح والجسم لدى الأفراد . والشيوعية تحكم الجسم فى الروح ، وتفرض على العقل سيادة المعدة .. انها أجدر بحياة الحيوان وابعد عما يليق بكرامة الانسان ..

***

الفصل الخامس

نحو كتلة ثالثة

- الكتلة الثالثة
- الاسلام .. ايدولوجية الكتلة الثالثة
- الوعى الاسلامى فى الكتلة الثالثة
- رسالة الأزهر وواجبه الأيدولوجى

نحـــو كتلة ثـالثة

● **الكتلة الثالثـــة :**

هناك في العالم اليوم كتلتان ، احداهما شرقية والأخرى غربية . ولكل كتلة منهما مثالية ونظام فكرى « أيدولوجية » خاص . فأيدولوجية الكتلة الشرقية هى الاشتراكية الدولية التى تقوم على التفسير المادى للتاريخ . بينما ايدولوجية الكتلة الغربية هى النظام الديمقراطى الرأسمالى . وبهذا وذاك تفترق الكتلتان بعضـــهما عن بعض . وليس للتقدم العلمى ولا للتطـــور الصناعى دخل فى تحديد الفرق بين هاتين الكتلتين . واذن الفرق بينهمـــا محصور فى النظام الفكرى الايدولوجى الخاص بهما .

وهناك بين هاتين الكتلتين رقعة فسيحة فى العالم ، لها ثراؤهـــا الاقتصادى ، وامكانياتها العديدة للوجود البشرى . ويجتمع سكانها على ايدولوجية خاصة — أى نظام فكرى اجتماعى روحى خاص ، لا هو شرقى ولا هو غربى ، وهو النظام الاسلامى . وتسمى هذه الرقعة بدار الاسلام . وتحدد دار الاسلام بأنها (١) : التى تجرى فيها أحكام الحنيفية السمحة ، وتعتبر بالنسبة لسائر المسلمين بلدا واحدا وبعبارة أخرى : دار الاســـلام هى الاقليم الواقع تحت ولاية رئيس مسلم تجرى فيه أحكام الاسلام ... فكل مملكة من الممالك العالمية جرى فيها الأمر على الوصف الذى قدمناه تعتبر دار اسلام ، وان اختلفت هذه الممالك باختلاف الملك والمنعة ، اذا لا عبرة باختلاف الدار فى حق المسلمين بعضهم مع بعض ، لأن حكم الاسلام يجمعهم . فالممالك الاسلامية كلها فى حكم المملكة الواحـــدة ... والدين الذى يوجب القصاص فيقتل المسلم بالذمى والحر بالعبد — حقنا للدمـــاء

---

(١) مجلة نور الاسلام جـ ٤ م ٣ ص ٢٧٢ : ٩ .

وصيانة للأنفس — لا يبيح لأهله أن يتفرقوا شيعا مهما اختلفت الدار ».
ولا يجيز لأهله أن يعامل بعضهم بعضا معاملة غير جائزة ، فليس من الجائز
فى الدين أن يعامل مسلمو افريقية مسلمى آسيا معاملة لا يرضونها لأنفسهم،
متذرعين بأنها ليست موطنا لهم . فان ذلك من حمية الجاهلية التى نعاها
الله على مشركى العرب ، ولأن المسلم من أية قبيلة او أية قارة أخ للمسلم
فى الدين ، ولأن الايمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب
اللاحق ما ان لم يفضل الاخوة النسبية لم ينقص عنها . وأخوة المؤمن
للمؤمن معناها ان كلا منهما انتسب لأصل واحد هو الايمان الموجب للحياة
الأبدية ، والذى هو جماع لفضل ومكارم الأخلاق ومنشأ المجد والسؤدد ».

● **الاسلام .. أيدولوجية الكتلة الثالثة :**

**وبهذا نرى أن الاسلام هو الذى يحدد الكتلة الثالثة ويحدد الروابط
بينها** . وسيظل الفاصل فى تحديدها ، مستقلا بها عما عداها من الكتل
القائمة . اذ الاسلام فوق انه هداية روحية هو رابطة اجتماعية سياسية .
ويمكن أن ندرك هذه الجوانب فيه من مثل قوله تعالى : **« قل تعالوا أتل
ما حرم ربكم عليكم ، الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا
أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها
وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به
لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ
أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا
قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم
تذكرون . وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق
بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١)** .

ومثل قوله : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله
ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم » (٢)** . ومثل قوله
ايضا : **« يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات
الشيطان ، انه لكم عدو مبين » (٣)** . ومثل : **« واعدوا لهم ما استطعتم**

---

(١) الأنعام : ١٥١ — ١٥٣ (٢) التوبة : ٧١
(٣) البقرة : ٢٠٨

من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم » (١) . ومثل قوله أيضا : **« ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهـم لا يتقون . فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » (٢) « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا بـالیوم الآخر ولا يحرمون ما حـرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٣)** .

فمثل هذه الآيات تحدد العلاقات بين افراد هذه الكتلة الاسلامية وهى الكتلة الثالثة ، فى معاملة بعضهم لبعض ، وفى سلوكهم الاخلاقى . كما تحدد مبادىء السلم والحرب من أجل هذه الكتلة ، وفى سبيل بقائها . والكتلة الاسلامية اذن هى كتلة لها هدف فى الحياة ، ولها رباط هو للاخاء ، ولها علاقة بالآخرين هى : الرغبة فى السلام ان امنوا على انفسهم واستقلالهم ، واللجوء الى الحرب والدفاع ان خافوا على امتهم وجماعتهم . وايمانهم بالله الواحد هو شعار جماعتهم ومحبة بعضهم لبعض هى قواعد تعاملهم ، وعدم ايذاء الآخرين هو مسلكهم مع من يتصلون بهم من الجماعات الاخرى .

هذا هو الاسلام فى تصوير مبادئه وغاياته بالنسبة لمجموعة الشعوب الاسلامية ، التى تكون الكتلة الثالثة ، ولكن هذه الكتلة الثالثة قد أصابها الاستعمار فمزق وحدتها الاقتصادية ، وشتت توجيهها فى تفكيرها السياسى والاجتماعى ، والبس عليها غاية الحياة وأهدافها ، مما جعلها فريسـة للمستعمر ، ونهبا لأطماعه ، ولم يزل يوحى بعوامل الفرقة بينها واثارة بعضها ضد بعض ، حتى كادت تفقد علاقاتها الاسلامية ، وتفقد المبادىء التى قامت عليها وحدتها فى العقيدة والايمان ، وأخذت تلتمس من الحيرة التوجيه والقيادة ، ولذا هى فى حاجة من جديد الى اشاعة الوعى الاسلامى بينـها .

---

(١) الأنفال : ٦٠ ، ٦١ (٢) الأنفال : ٥٥ — ٥٨
(٣) التوبة : ٢٩

أدرك الاستعمار قيمة هــذه الرقعة ، التي هي موطن الكتلة الثالثة ، وما فيها من ثروة طبيعية وبشرية وامكانيات اقتصادية ، وأدرك بالتالي حاجته الملحة ، الاستراتيجية والاقتصادية معا ، الى هذه المنطقة ، ثم أدرك بعد قرون مضت على استعماره اياهــا . أن سكانها قــد تيقظوا وتمسكوا بمبدأ تقرير المصير . أدرك كل هذا فعمل على تقســيمها الى مجموعات ووحدات مستقلة : مستقلة بعضها عن بعض ومنفصل بعضها عن بعض ، ولكنها غير مستقلة عن نفوذه ولا منفصلة عن أطماعه وتحقيق أهدافه فيها . ضرب بعضها ببعض ، ولم يزل يضرب بعضها ببعض حتى هذه اللحظة . وأنشأ فيها مدارس وخلق فيها اتجاهات تسانده وتؤيده ، ولذا فهي في أشد الحاجة لأن تبصر من جديد بعوامل الوحــدة بينها ، وعلائق القربى التي يجب ألا تنفصم بينها ، يجب أن يوقظ فيها الوعي الاسلامي من جديد .

● الوعي الاسلامي في الكتلة الثالثة :

واذا كان الاسلام هو مصدر ايدولوجية الكتلة الثالثة بين الكتلتين القائمتين اليوم ، فقوة هذه الكتلة تتوقف على قوة الوعي بالمبادىء الاسلامية والايمان بها . كما أن ضعفها يتوقف على تفشي الجهل بهذه المبادىء بين أفرادها وضعف الايمان برسالة الاسلام في نفوسها .

الاسلام ــ كما يقول عنه المستشرق الانجليزي جب ــ : « قد انتشر انتشارا سريعا في فترة لا تجاوز قرنين ونصف قرن . وقد كان من أبرز آثار هذا الانتشار السريع الذي تكونت خلاله الحضارة الاسلامية الكاملة انها نشأت حضارة موحدة . اذ لم تكن هناك فرصة لتأثير العناصر الاقليمية المختلفة والثقافية المتباينة . فلما انتشر الاسلام بعد ذلك لم يكن دينا ساذجا ، ولكنه كان نظاما كاملا شاملا للحياة ، ولذلك ترى أن اتساع رقعة العالم الاسلامي من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهادي لم تؤثر في وحدة الحضارة الاسلامية ، على غير ما تقضي به العادة (١) .

---

(١) « طريق الاسلام » ١٥ ــ ١٧ .

• رسالة الأزهر ... وواجبه الأيدولوجى :

واذا كانت قوة الكتلة الثالثة تتوقف على اشاعة الوعى الاسلامى بين أفراد هذه الكتلة من المحيط الأطلنطى الى المحيط الهادى ، وعلى قوة الايمان برسالة الاسلام — فلابد أن يكون هناك مركز ما لتوزيع هذا الوعى ودفعه ، وتأكيد الايمان بالاسلام فى نفوس المسلمين . ونحن اذا اتجهنا للتفتيش عن مركز يقوم بهذه الرسالة لا نجد سوى الأزهر فى رقعة العالم الاسلامى كله ، أو فى موطن الكتلة الثالثة . اذ الجامعات الحديثة فى هذا العالم الاسلامى هى جامعات لا تعنى بالايدولوجية ولا بالنظام الفكرى لأصحاب هذه الكتلة الثالثة . وانما عنايتها بما لا يصور أيدولوجية ونظاما فكريا خاصا ، وهى العلوم والرياضة وفروع الدراسات الهندسية المختلفة ، أو اذا عنيت بأيدولوجية ما فانما تعنى بفكر منثورة لا تكون نظاما فكريا ، متكاملا يكون شرقيا ، أو غربيا ، أو اسلاميا .

الأزهر وحده — وليست الجامعات الحديثة — هو مركز هذا الاشعاع . الأزهر فريد بهذه الرسالة ، لا يوجد له مشارك قديم أو حديث فى اطار الكتلة الثالثة .

ومنذ أن قام الى اليوم وهو مركز الرسالة الاسلامية ، سواء ما يتعلق بدراسة تعاليمها المباشرة ، أو ما يتعلق بدراسة الوسائل التى تصحح فهمها وتصورها وهى اللغة العربية وما يتصل بها من دراسات .

وكنت غاية الاستعمار هى تفتيت هذه الكتلة . ومعول هذا التفتيت هو اضعاف الأزهر وتعويقه عن أن يكون ذا رسالة ايجابية فى الحياة الاسلامية . لنقرأ هذه العبارة الآتية من تقرير اللورد لويد — المندوب السامى البريطانى السابق فى مصر — « ان أهمية الأزهر بوصفه مركزا من مراكز الدعاية المعادية لبريطانيا كبيرة متعددة الامكانيات . وقد أدرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييد مآربهم . وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الانكليز على التعليم » (1) .

ويقول : « ان التعليم الوطنى عندما قدم الانجليز الى مصر كان فى قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتى كانت أساليبها

---

(1) الجزء الأول ص ١٥٩ .

الجافة القديمة تقف حاجزا فى طريق اى اصلاح تعليمى ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الدينى ، ولا يصيبون الا قدرا ضئيلا جدا من **مرونة التفكير والتقدير** .

« فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو ، لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير أن نتصور أى تقدم طالما ظل الأزهر متمسكا بأساليبه الجامدة .

« ولكن اذا بدا مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه فحينئذ يصبح الأمل محصورا فى اصلاح التعليم المدنى الذى ينافس الأزهر ، حتى يتاح له الانتشار والنجاح . وعند ذلك سوف يجد الازهر نفسه أمام احد أمرين : فاما أن يتطور ، واما أن **يموت ويختفى** .

« على أن الخطة الاولى — التى تقوم على اصلاح الأزهر من داخله — لها نتيجة عظيمة الأهمية والفائدة ، وان لم تكن نتيجة مباشرة (فى اللقاء مع المستعمر الغربى) ، وهى انها تؤدى بالتدريج الى اختفاء التعصب الدينى الذى أخر تقدم مصر زمنا طويلا ! ! . أما الخطة الثانية — وهى اصلاح التعليم المدنى — فان تأثيرها المباشر (فى اللقاء مع الاستعمار) **اقوى فى ايجاد ما نحن فى أشد الحاجة اليه من اقامة العلائق الانجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل** » (١) .

وروج تلاميذ ديوى فى الشرق العربى وفى مجالات التربية والتعليم بوجه خاص للواقعية فى مجال التربية ... وعملوا على ان ينقلوا صورة المدرسة الأمريكية والمجتمع الأمريكى الى شرقنا العربى ، لتكون بديلا عن الأزهر المتأخر ، غير المتطور ... ومضى الزمن وانقشع الضباب والسراب ، وكتبت مجلة أمريكية هى (تايم) فى عددها الصادر بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٩٤٨ تحت عنوان : « جون ديوى وغيومه المزمنة » :

« ان ثلاثين عاما انفقها اتباع (المربى التقدمى) جون ديوى فى محاولة (الانسجام مع الحياة) ، قد ابعدت التربية الامريكية كثيرا عن مرحلة (الانسجام) وتركتها مجردة من العناصر الصالحة لتنشيط الحياة الفكرية . وفى هذا الاسبوع تقوم (لايف) بدراسة أعقد مشكلة فى التربية » .

---

(١) صفحة ١٥٨ — ١٥٩ .

لما كان المعلمون التقليديون — وهم الاولون قبل ديوى — واثقين من القيم الخاصة التى آمنوا بها فى الاخـــلاق والقانون والثقافة ، فقد بدأوا عن وعى يتناولون هذه القيم على أنها جزء من سنة حية . اعتقد هؤلاء المعلمون ان تلك القيم كلهـــا — من قانون (روبرت بويل) — الطبيعى البريطانى — الى الخطاب الاول لسيسرو ضد كاتالين — تراث ثقافى واحد ، وأنه كلما اكثر الانسان من تعلمها نضج عقله وازدادت يقظته الفكرية .

وجاء ديوى وتلاميذه فثاروا ضد هذه الثقة التى كانت قد تأصلت فى النفوس ، وتولت القيادة والتوجيه فى طرق التدريس . ويسجل التاريخ انه لم يشهد أعنف من هذه القضية ، قضية القاء الغلام فى الهواء وماء الحمام يتقاطر من جسمه ، « نحن نوافق » ، قال ديوى ذات مرة ، « اننا لا نعرف الى أين نحن ذاهبون ، أو فى أى اتجاه نريد أن نذهب ، أو لماذا نفعل ما نحن فاعلون » .

وعلى طريقة ناد ريفى أكد ديوى و « غلمانه » أن الغايات التقليدية للتربية — السابقة على ديوى — مثل الله ، والفضيلة ، ومعنى « الثقافة » كلها غايات قابلة للنقاش والجدل ، ومن ثم فلا جدوى من مناقشتها . وفى مكانها يجب أن تحل غاية أخرى هى : الانسجام مع الحياة .

« وهكذا حول الديويون الوسائل الفنية التى من شأنها فقط أن تساعد المعلم على التدريس الى غايات فى نفسها ، وادعوا أن لكليات المعلمين حرمات تشبه حرمات معابد التبت ، وأنكروا على المعلمين فرصة الاستزادة من المعرفة فى موادهم الاصلية ، مفضلين أن يقوموا بدراســـات تربوية تعرفهم : كيف يدرسون تلك المواد ؟ » .

لقد اختفى النظام داخل المدارس ، وترك مكانه صورا يتزايد الشك فيها وهى صور مما يسمونه « تأثير المجموعة أو الأسرة » اى محاولة التأثير عن طريق الحديث والرأى بين أفراد مجموعة ما . وقد صرح أحد نظار المدارس الثانوية مرة فى شىء من الفخر : انه بالنسبة لمجموعات المراهقين لا يوجد شىء اقوى من رأى المجموعة فيما تبديه من موافقة أو مخالفة . اذ عندما توافق الأغلبية ينضم اليها الباقون .

.. وليس من السهل على المربين المحدثين أن يتصوروا : أن تشجيع مثل هذا الانقياد الأعمى « لضغط المجموعة » **انما هو مســخ للديمقراط**

الحرة . وحتى مثل هذا النقد يسبب لهم فى الحقيقة الضيق والاحراج .
كما تضايقهم الاقتراحات التى قد تدعوهم الى تركيز مجهود أكثر فى مواد
« التعليم » الجافة ، مثل : الرياضيات واللغات ، بدلا من مشـــــكلات
المراهقين ورعاية الجمال ، ونحو ذلك .

« ان مظهر فقر التلاميذ فى القيام بواجباتهم قد برهن على أن المربين
مخطئون . فطلبة المدارس الثانوية فى أمريكا اليوم يجهلون جهلا واضــحا
الاشياء التى كان يجب على تلاميذ المدارس الابتدائية فى الجيل الماضى أن
يعرفوها . لقد انقضت أعوام فى بحوث عقيمة فى اللغة الانجليزية وخلفت
من ورائها جيلا كاملا مقطوع الصلات التاريخية بتلك اللغة . واذا انقطعت
صلة الطالب بتقاليده ، ولم يحتفظ منها الا بأوضح صور الاتصال — كــان
يقوم من وقت لآخر بزيارة لبعض المدن الريفية المحلية — فانه عندئذ يكون
قد ضيع على نفسه كل معنى للتاريخ . ومن المؤكــد أن تــاريخ الحروب
الصليبية يمكن ان يعطى الشاب الامريكى فكرة عن مشكلات الامم المتحدة
أو حلف شمال الاطلنطى ، افضل مما يمكن أن يحصل عليه هذا الشاب من
الظهور بالرداء القومى لمندوب باكستانى فى بعض الاجتماعات التى يعقدها
طلاب المدارس تقليدا لاجتماعات هيئة الامم المتحدة .

« ان التصدع الذى ظهر فى عالم ديوى قد يوحى للانسان بأن المربين
الديويين سينشرون العلم الأبيض ويستسلمون . ولكن الأمر بعيد عن ذلك .
انهم ، وقد اعتصموا بادارات المدارس العامة ، يدافعون بقــوة وترابط
اخوى عن كل فكرة من مبادئهم . وقد رفض « الاتحاد المركزى الشمالى
للكليات والمدارس الثانوية » ان يعتمد المدرسة الثانوية المسيحية فى مدينة
هولاند بولاية ميتشيجان ، مع انها مؤسسة محترمة وذات مســـتويات
علمية عالية . وكان السبب : أن هذه المدرسة رفضت أن تنزل بمستوياتها
العلمية فتضيف الى المناهج دروسا فى فن الطبخ والبيع والشراء . ان هناك
قوانين يجرى العمل بها فى الحكم على مثل هذه المدارس . وهذا نموذج من تلك
القوانين : « هل توجيه الفرد فى دراسته وسلوكه قائم على سلطة المدرس
أم على سلطة المجموعة والأسرة » نفسها وعلى المقاييس التى تحددهــا
تلك المجموعة ؟ والى أى حد يجد الأطفال فرصا مهيأة لتنمية القيم الخلقية
والروحية ، عن طريق التجربة المباشرة بالعمل مع بعضهم البعض ؟ ...

« اننا لا يمكن أن نتوقع النجاح فى معالجة هذه المقاييس المضطربة اذا اقتصرنا فقط على اعطاء المدرسين ما يستحقون من مرتبات ، وعلى بناء ما نحتـاج من مدارس ، وعلى اضافة بعض الدروس العلمية الى البرامج . ان هناك بعض الخطوات الهامة التى يمكن اتخاذها بواسطة « الولاية » والسلطات المحلية يجب الغاء العدد الاكبر من كليات المعلمين الرسمية وتحويلها الى كليات للآداب الحرة ، متميزة بدراسة اللغـات والعلوم والفلسفة والتاريخ ونحو ذلك ، بدلا من الاقتصار على تدريس التربية المهنية التى يمكن — بعد هذا الالغاء والتحويل — أن تنشأ لهمـا اقسام فرعية ملحقة بتلك الكليات . ويجب كذلك ان نرتفع بمسـتوى المناهج الدراسية على أن يكون ذلك بصفة حاسمة وشاملة ».

ولكن هناك ما هو اهم من هذا كله : حاجتنا الى شىء من التفكير فى الاهداف السليمة للتربية . وان ثبت ان للديويين بعض المستحدثات الصالحة فالواجب الابقاء عليها غير أن تفرغهم التام للوسائل الفنية وفكرة « انسجام المجموعة » واهمال كل ما عدا ذلك أمر يجب الا يسمح به مرة اخرى أبدا حتى لا يخفى ذلك الحقيقة الهامة : وهى ان الهدف الأول للتربية الأمريكية هو تزويد الفرد بثقافة صحيحة تقنعه بأن هناك « تاريخا واهدافا وراء هذه التربية » .

***

وفى الوقت الذى كانت ترتفع الغشاوة عن أعين الغرب — وأمريكا بالذات بالنسبة لجون ديوى — كما ارتفعت الغشاوة بالنسبة لفرويد من قبل ... كان الشرق العربى ينهض ويثور ... يثور ليهدم ويبنى ... يبنى على أساس من أصالته وذاتيته .

ولم ننس أن فى مصر : الأزهر .... الأزهر وتاريخه المجيد ..... الأزهر ودوره الجليل ...

ولقد صدر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ باعادة تنظيم الازهر والهيئات التى يشملها ، ويتيح للأزهر فرصا اكبر ومجالا اوسع لأداء رسالته :

● فصارت كلياته القديمة تضم دراسات مقارنة معاصرة فى فروع تخصصها : فى القانون بالنسـبة لكلية الشريعة ، وفى الأدب والتـاريخ

والحضارة بالنسبة لكلية الدراسات العربية وفى العقائد والفلسفات بالنسبة لكلية أصول الدين ..

● وانشئت كليات المعاملات والادارة والهندسة والطب لتعيد أمجاد الأزهر فى دراسات الفلك والرياضة والجغرافيا الخ ..

● وانشئت كلية البنات الاسلامية لتؤكد أن طلب العلم فى الاسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة ..

● وضم مجمع البحوث الاسلامية أعضاء متخصصين فى سائر الدراسات ومن سائر الاقطار لتحقيق عالمية الاسلام ..

● ونص القانون على أن جامعة الأزهر هى جامعة المسلمين من كل بلد .

والمأمول أن يعين ذلك على أن يجد الأزهر فى السير وتحقيق رسالته الانسانية العالمية . والله ولى التوفيق ...

***

الفصل السادس

المجتمع العربي وفلسفة الاشتراكية

- تمهيـــد :
  - فلسفة أفلاطون
  - فلسفة الثورة الفرنسية
- ثورات القرن العشرين :
  - الشـــيوعية
  - الفـــاشـــية
  - النـــازية
- الرسالات الدينية :
  - المســـيحية
  - الاســـلام
- الفرق بين ثورة واخرى :
  - موازنة بين صور الثورات الحديثة
  - الاشتراكية الشيوعية
  - اشتراكية الفاشية
  - اشتراكية النازية
  - الاشتراكية العربية

المجتمع العربى وفلسفة الاشتراكية

● **تمهيـــــد :**

كل رسالة اصلاحية دينية أو فلسفية انما ظهرت لتغيير الوضـــع الاجتماعى ، وجاءت عقب اختلال واضح فى توازن المجتمع .

وكل نظم الحكم فى الجماعة الانسانية تعطى لنفسها الحق فى أنها قامت لتزيل الاختلال فى التوازن ، وتحقق « العدل الاجتماعى » .

والاختلال فى توازن المجتمع اذن هو سبب التغيير فى نظامه ، وبالتالى تحقيق العدل الاجتماعى هو هدف التغيير فى نظام أى مجتمع .

وكل نظام فى الحكم له فلسفة ورسالة تبرر قيامه وتدعو لاستمراره . واذن هناك فى تاريخ اى جماعة انسانية عرفت سياسة الحكم الحقــائق الآتيــة :

(أ) نظام للحكم فى صورة ما .

(ب) فلسفة أو رسالة تبرر هذه الصورة من نظم الحكم ، دون غيرها .

(جـ) تغيير أى نظام للحكم يأتى عقب اختلال فى توازن الجماعة ، ويهدف أو يدعى انه قام لاعادة توازن الجمــاعة من جديد . أو لتحقيق ما يسمى بالعدل الاجتماعى .

● **فلســـــفة افلاطـــون :**

وضع افلاطون على عهد الاغريق نظاما للحكم فيما سماه « الجمهورية » وقصد به تحقيق التوازن بين طبقات الشعب الاغريقى . واشتق هــ

النظام من تصوره « العدل » بين قوى النفس البشرية للفرد من الانسان .
تلك القوى التى أطلق عليها : القوة الشـــهوية . والقوة الغضـــبية ،
والقوة الحكمية . وهى متدرجة فى القيمة — فى تصوره — أدناها قيمة القوة
الشهوية وأرفعها فى المرتبة القوةالحكمية . أما القوةالشهوية فوظيفتها تحقيق
الجانب الحيوانى فى الانسان بينما وظيفة القوة الغضبية هى الدفاع عن كيانه
ووجوده الشخصى . أما القوة الحكمية ، وهى القوة العاقلة والادراكية فى
الانسان — فهى لضبط هاتين القوتين ، بحيث لا تسيطر القوة الشهوية
فيه على تصرفه فيكون فى مستوى الحيوان فى الانحطاط ، وبحيث لا تطغى
عليه القوة الاخرى وهى الغضبية فيكون متهورا جامحا . وتحقيق التوازن
بين هاتين القوتين يتم اذن بفضل القوة الحكمية فى الانسان .. ووظيفة
هذه القوة — كما تصور افلاطون — هى العدل فى دائرة الفرد الانسانى .

وعلى هـــذا القياس تمثل افلاطون أن الجماعة — وطبعا الجماعة
الاغريقية — تتكون من ثلاث طبقات : الطبقة العاملة ، وطبقة الجند ،
وطبقة الحكماء والفلاسفة . والطبقة العاملة فى الجماعة بمثابة القـــوة
الشهوية فى الفرد . وطبقة الجند فيها تساوى القوة الغضبية لدينها .
بينما طبقة الحكماء تقابل القوة الحكمية . ولكل من الطبقات الثلاث فى المجتمع
نفس القيمة ونفس الوظيفة التى لنظائرها من قوى النفس الفردية .

وبهذه الفلسفة النظرية أراد افلاطون ان يزيل « الخلل فى التوازن »
سواء فى الفرد أو الجماعة . ويحقق بالتالى العدل بين قوى نفس الفـــرد
والعدالة بين طبقات المجتمع .

وهو لم يحاول هذه المحاولة النظرية الا بعد ما انتشر الرق الانسانى
فى الشعب الاغريقى وتعددت صور الظلم الاجتماعى الذى كان يباشره
بعض الطبقات فى العلاقة مع بعض آخر منها ولم يكن من سبب فى ممارسة
هذا الظلم الاجتماعى الا القوة المادية التى أتيحت لفريق دون فريق واستغلها
الفريق الذى أتيحت له دون نظر الى الروابط العديدة بين افراد الشعب
الواحـــــد .

ولذلك عندما أعلن افلاطون فلسفته النظرية هذه عد فيلسوفا مثاليا .
لأنه ربط تحقيق العدالة فى صورتيها الفردية والجماعية بسيادة الحكمة على
القوة المادية وهو فى واقع الأمر لا يكافح القوة المادية فى ذاتها وانما يكافح
أن تكون لها السيادة وحدها ومن هـــذا يكون فى الفلســـفة المثالية التى

ابتداها أفلاطون فى سلسلة من التفكير المنظم الصراع مع الفلسفة المادية التى تمجد المادة وحدها فى صورها المختلفة وتطلب ان تكون لها السيادة فى السلوك الفردى والجماعى :

فلسفة الثورة الفرنسية :

ولو انتقلنا من فلسفة افلاطون ورسالته الفكرية لاعادة التوازن ودفع الاختلال ، أو لتحقيق ما يسمى بالعدالة فى الشعب الاغريقى الى فلسفة النهضة الأوروبية وبالأخص الى فلسفة الثورة الفرنسية نجدها ايضا ظاهرة حدثت فى مجتمع انسانى عقب اختلال فى توازن هذا المجتمع لتزيل هذا الاختلال وتحقق التوازن أو العدالة الاجتماعية ، وشعارها المثلث الكلمات : الاخاء ، والحرية ، والمساواة ، يعبر عن : لأى سبب ولأية غاية وجدت ، فالظلم الاجتماعى فى صوره العديدة الذى كان يمارسه ملوك فرنسا وحكام الملوك ويبارك وضع هؤلاء الملوك وحكومتهم رجال الكنيسة الكاثوليكية . كان السبب لتلك الثورة الفرنسية الكبرى التى قاد تفكيرها فولتير حقبة طويلة من الزمن . وقيام الجمهورية الفرنسية الاولى كان آية التغيير فى نظام الحكم فى المجتمع الفرنسى الذى وجد ليزيل آثار الظلم الاجتماعى الذى سببه اختلال التوازن . ويعيد من جديد التوازن أو يحقق العدلة الاجتماعية .

واذا اخذت فلسفة أفلاطون طابع الفلسفة المثالية ، فقد كان لفلسفة الثورة الفرنسية طابع الانسانية لأنها لم تحارب فى تفكيرها الفلسفى فقط نظام الحكم السابق عليها . وأسطورة القداسة التى كانت للملوك والحكام — بل اشتد عنفها فى الصراع العقلى ضد الكنيسة الكاثوليكية ورجالها الذين ساندوا باسم الدين تتويج الملوك وصلاحية النظام الملكى فى الحكم الذى أوحى اذن بأن تستخدم الثورة العنف واسالة الدم من جانب ، بالانقلاب العام راسا على عقب فى كل ما كان للمجتمع من نظم فى الحكم والاقتصاد ، وقيم انسانية فردية أو جماعية .

ولذلك كان العبء الذى تحملته هذه الثورة وتتحمله حتى الآن عبئا شاقا فى الداخل والخارج على السواء ، هو عبء مواجهة الرأى العام الدولى بانكار القيم الانسانية والخلقية المشتركة ، وعبء مواجهة الحقوق

الطبيعة العامة التى للانسان بحكم أنه انســان قدر له من طبيعته أن يسود فيملك ويختار اذا ما تصرف وسعى ، ومن هنا كان استمرارها فى أن تتخذ من العنف فى الصراع والانقلاب شعارا لها ترمز اليه باللون الأحمر آية على مشقة العبء فى جوانبه العديدة الذى تحمله والذى ستستمر فى تحمله ، كما سنذكره فيما بعد :

وعلى كل حال هى ثورة قامت لتعيد التوازن الجماعى بعد ان اختل ككل ثورة قامت ووجــدت ــ أما كيف انها بمحاولتها الانقلابية الدموية أعادت أو تعيد التوازن ــ فهذا شىء سيأتى عند الموازنة بين ثورة وأخرى وبين رسالة أو فلسفة اصلاحية ، ورسالة أو فلسفة أخرى .

***

ثورات القرن العشرين

ولو تركنا هذه الثورة وفلسفتها الى النصف الأول من القرن العشرين والى ما حدث فيه من ثورات وفلسفات لهذه الثورات تبرر قيامها لوجدنا ان كلا من الثورة البلشفية فى روسـيا والثورة الفاشية فى ايطاليا — والثورة الأخرى النازية فى المانيا ظاهرة اجتماعية دفع اليها وضع اجتماعى سابق ، وقصدت الى تغيير هذا الوضع واحلال وضع اجتماعى آخر يخلو من عيوبه .

● **الشـــيوعية :**

فالثورة الشيوعية أو الثورة الحمراء أو الثورة الماركسية قامت قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٧ ضد النظام القيصرى والنظام الطبقى البرجوازى فى الحكم وضد الكنيسة الارثوذكسية وضد الرأسمالية الصناعية والاقطاع الزراعى على السواء لأن كل هذه النظم جميعها — وهى نظم داخلية — ساهمت فى تأسيس الوضـع السابق عليها ، وفى محاولة الابقاء عليه وهو وضع وضحت فيه مظاهر « اختلال التوازن » فى الجماعة وفى العلاقات بين الأفراد والطبقات . فكان هناك تحكم واحتكار من جانب يقابله طواعية المستذل واستسلام المسترق من جانب آخـر . وكانت هناك قدسية لبعض الأفراد واهدار لآدمية البعض الآخر .

والنظام القيصرى الروسى السابق على الثورة الشـيوعية الحمراء اعتمد على حق الطاعة المطلقة على الرعية . وساندته الكنيسة الروسية — وهى الكنيسة الشرقية — باضفاء حق القداسة عليه ومباركته باسم الحق الالهى — كما سانده أصـحاب رؤوس الأموال والاقطاع . أمـا الطبقة البرجوازية فكانت الطبقة المنفذة لحكم القيصر عن ولاء والمستغلة له فى الوقت نفسه فى تحقيق المصالح الفردية .

ولأن القوى التى كونت أو ساندت الوضـع السابق فى المجتمـع الروسى على الثورة الشيوعية كانت متعددة وواسعة النفوذ والأثر —

أخذت هـذه الثورة طابع العنف فكانت ثورة الدماء — ولم يزل الدم شعارها — واخذت طابع العمق والسعة معا فى التغيير — فكانت فى الجانب الاقتصادى شيوعية . وفى جانب الايمان بالكنيسة — ثم بالدين كله — انكارا والحادا . وفى جانب القيم الأخلاقية الفردية تطبيقا فى ناحية وتحللا واباحية فى ناحية اخرى ، وبهذا التغيير الواسع المدى والعميق الجذور ، ارادت الثورة الشيوعية أن تزيل اختلال التوازن وتعيد العدالة الاجتماعية الى المجتمع الروسى . والوضع المحلى فى الجماعة الروسية السابق عليها هو الذى اوحى اذن بأن تستخدم الثورة العنف واسالة الدم من جانب ، وبالانقلاب العام راسا على عقب فى كل ما كان للمجتمع من نظم فى الحكم والاقتصاد ، وقيم انسانية فردية أو جماعية .

ولذلك كان العبء الذى تحملته هذه الثورة وتتحمله حتى الآن عبئا شاقا فى الداخل والخارج على السواء ، هو عبء مواجهة الرأى العام الدولى بانكار القيم الانسانية والخلقية المشتركة ، وعبء مواجهة الحقوق الطبيعية العامة التى للانسان بحكم انه انسان قدر له من طبيعته أن يسود فيملك ويختار اذا ما تصرف وسعى ، ومن هنا كان استمرارها فى أن تتخذ من العنف فى الصراع والانقلاب شعاراً لها ترمز اليه باللون الأحمر آية على مشقة العبء فى جوانبه العديدة الذى تحمله والذى ستستمر فى تحمله كما سنذكره فيما بعد .

وعلى اى حال هى ثورة قامت لتعيد التوازن الجماعى بعد أن اختل ككل ثورة قامت ووجدت — أما كيف انها بمحاولتها الانقلابية الدموية اعادت أو تعيد التوازن — فهذا شىء سيأتى عند الموازنة بين ثورة واخرى ، وبين رسالة أو فلسفة اصلاحية ، ورسالة أو فلسفة أخرى .

● الفاشـيـة :

والثورة الفاشية فى ايطاليا ايضا قامت لتعيد توازنا فى المجتمع الايطالى اختل ولكن بسبب ثورة أخرى سبقتها مباشرة وهى الثورة العمالية التى استجابت للشيوعية الدولية وسلكت خطوطها العامة فى المجتمع الايطالى .

ولذلك لم تحارب الفاشية النظام الملكى فى ايطاليا الا فى الفترة الأخيرة من حياتها فى أواخر الحرب العالمية الثانية بعد ما أعلنت النظام الجمهورى

على أثر تعاون القصر الملكي الايطالى مع الحلفاء الغربيين ضد الفاشية وسياسة المحور ، كما لم تحارب الكنيسة الكاثوليكية .

ورأت الفاشية اذ ذاك اختلال التوازن فى المجتمع الايطالى يعود أولا وبالذات الى تغلغل الشيوعية والنظام الشيوعى ضد الملكية والكنيسة وضد رأس المال والاقطاع ثم الى آثار الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى ، ولذا كان تحريم الشيوعية فى المجتمع الفاشى الايطالى مقدمة فى نظرها لاعادة التوازن فى الجماعة الايطالية .

أما عوامل اعادة هذا التوازن فحددتها الفاشـــية بصورة من صور الاشتراكية التى تقوم على العمل الجماعى ، دون أن تفقد الرأسمالية ويفقد الاقطاع الزراعى وجوده ولكن دون أن تكون لأحدهما سيادة ودون أن يباشر أحدهما أو كلاهما سياسة الاستغلال فى مجال الاقتصاد وسياسة الضغط فى مجال توجيه الحكم ، وكذلك دون أن يفقد النظام الملكى طابعه وتفقد الكنيسة توجيهها ، ولكن ايضا فى عزلة أو شبه عزلة عن مجال الاقتصاد وتوجيـــه الحـــكم (٥)

● النـــازية :

وعلى غرار الثورة الفاشـــية فى ايطاليا وتحت ضغط ظروف داخلية محلية وخارجية سياسية — قامت النازية فى المانيا أو الاشتراكية الوطنية ورأت هذه الثورة فى سيطرة اليهود الذين هاجروا من شرق أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى — على جوانب الحياة فى المجتمع الالمانى سواء فى الاقتصاد أو السياسة أو التعليم أو الصحافة أو القضاء أو الجيش أو المسرح والفن أو الجامعة — خطرا يهدد حياة الشعب الألمانى ، بالاضـــافة الى تغلغل الشـــيوعية فى شمال المانيـــا . وسيطرة الكنيسة الكـــاثوليكية — وهى كنيسة الاقليم هناك على جنوب وغرب المانيا — اذ هذه جميعها عوامل تجعل من الشعب الالمانى جماعات تدين بالولاء والتبعية لغير الدولة الالمانية فاليهودية وانتشارها وتحكمها لايعنى انتشار مذهب دينى لفئة من المواطنين ، وانما انتشار العالمية التى تأخذ صورا شتى وكلها تحارب القومية وتحارب القيم الخاصة بالمجتمع الذى تعيش فيه ، كى تمكن للأقلية أن تتمتع بنفوذ سياسة المال والجاه دون أن تؤذى أو دون أن تخشى وعى القومية واثرها

والشيوعية الدولية تفرض الطاعة على اتباعها لأصحاب المذهب وقادة الحركة الشيوعية بدلا من القيادة والزعامة المحلية أو القومية . وهى اذن تفرضها لمن هم وراء حدود الوطن ، وتجعل من معتنقيها عملاء وتابعين لتلك القيادة الخارجية .

والكنيسة الكاثوليكية بدورها تجعل ولاء التابعين لها الى الفاتيكان وليس الى الدولة والوطن الذى يعيشون فيه . هذا من آثار الفصل بين الكنيسة والدولة .

وبجانب هذه العوامل الداخلية أحست النازية ايضا بضغط الهزيمة العسكرية فى الحرب العالمية الاولى وبضغط آثارها السياسية فى المعاهدات التى عقدتها ألمانيا مع الحلفاء ، وبالأخص معاهدة فرساى التى أعطت لفرنسا الاشراف الاقتصادى على اغنى منطقة فى العالم بالفحم والحديد وهى منطقة السار والرور ، وفى غرب ألمانيا من وقت توقيع المعاهدة الى سنة ١٩٣٥ ، كما قيدت هذه المعاهدة قوة المانيا العسكرية وسمحت للحلفاء بالتدخل فى شئون ألمانيا الداخلية .

كل هذه العوامل مجتمعة سببت اختلالا فى توازن المجتمع الالمانى وأصبح لرأس المال نفوذ وللاقطاع نفوذ وللدولة العالمية نفوذ وللتدخل السياسى الخارجى نفوذ كما أصبح التوجيه فى داخل المجتمع لكل العوامل عدا عامل الوطنية والقومية وهنا تفككت الروابط بين أفراد المجتمع واختصمت الطوائف واحتكت الطبقات بعضها ببعض .

وعندما قامت الثورة النازية أو الثورة الاشتراكية الوطنية فى المانيا رأت من الضرورى أن اعادة التوازن الى المجتمع مرتبط ارتباطا أساسيا بالقوى الوطنية وبالقيم والخصائص التى للشعب الالمانى : كشعب جرمانى له مقوماته التاريخية واللغوية والفلسفية والانشائية .

من هنا اسمت نفسها بالاشتراكية الوطنية ، وقصد بكونها اشتراكية أن تقرب الفوارق بين الطبقات ، مع الابقاء على رأس المال الخاص فى الصناعة وعلى الاقطاع فى الأراضى الزراعية ذلك عن طريق الضريبة التصاعدية ، كما قصد بها أكثر من ذلك . أن يكون الفرد للمجموع والمجموع للفرد أى أن تكون هناك رعاية متبادلة ، وأن يكون هناك واجب متبادل بين الفرد والجماعة .

اما « الوطنية » فقصد بها ابعاد التوجيه الدولى والعالمى فى محيط المجتمع الالمانى — على أن يحل محله رعاية ما للوطن من خصائص ومقومات وهنا اشتبكت النازية مع كل من الشيوعية واليهودية العالمية ، والكنيسة الكاثوليكية اشتباكا عنيفا ومستمرا وحاولت ذلك قبل بدء الحرب العالمية الثانية بعشرين سنة فى ميادين عديدة ، وليس من اليسير الظفر فى احداها على حدة ، فضلا عن الظفر فيها مجتمعة .

وأعطت النازية — باعتبار كونها ثورة وطنية — قيمة خاصة لتاريخ الشعب الالمانى ولغته وفنه وعمله وصحافته وجيشه وكنيسته وهى الكنيسة البروتستنتينية .

وبذلك حاولت أن تنقل مركز الثقل من العالمية والدولية الى القومية والوطنية ، وأن تجعل رأس المال والاقطاع كلاهما يميل بعامل التوجيه الى الفلاح والعامل وعندما أعلنت فى شعارها أن : المانيا فوق الجميع ، قصدت الى أن ألمانيا فوق العالمية والدولية ، وأن القوى والامكانيات الموجودة لدى الشعب الالمانى وفى رقعته يجب توجيهها أولا الى خير الشعب جميعه قبل أن توجه الى ما وراءه مما تدعو اليه فكرتها الدولية والعالمية ، وهما فكرتا الشيوعية واليهودية (*) .

وهكذا كل واحدة من هذه الثورات التى قامت فى النصف الاول من القرن العشرين قامت تحت ظروف محلية داخلية قد يشابه بعضها بعضا وقد يختلف بعضها عن بعض وقامت لتعيد « التوازن » فى المجتمع وتبعد عنه عوامل الاختلال فى علاقة الطبقات بالأفراد . وكل واحدة من هذه الثورات لها فلسفتها الخاصة بالتوجيه ، وهى فلسفة قصد بها أن تبرر قيام الثورة وتبرر وجودها وتبرر بقاءها (*)

***

الرسالات الدينية

ولو انتقلنا من هذه الثورات جميعها ومن فلسفتها الخاصة بها المبررة لقيامها واستمرارها الى تلك الرسالات الدينية التى تمثل أيضا ثورات ومبررات لهذه الثورات — نجدها قامت على اثر اختلال « فى توازن المجتمع لتعيد الميزان أو لتعيد وضع التوازن المنشود فى المجتمع الانسانى » **((ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون))** (١) . **((لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط))** . (٢) **((وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل))** (٣) .

● **المسيحية :**

فرسالة المسيح عليه السلام جاءت على اثر اختلال المجتمع الشرقى اليهودى عن طريق طغيان « المادية والفردية » وتحكم النزعات الممزقة لعلاقات الافراد واواصر القربى بينهم ولذا كانت دعوتها — لكى تعيد التوازن — الى الاخوة والتسامح والمحبة ، كانت دعوتها الى « الروحية » فى مقابل « المادية » وآثارها المخربة المقوضة للمجتمع **((وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين))** (٤) .

---

(١) القصص : ٤ — ٦ (٢) الحديد : ٢٥
(٣) النساء : ١٦١ (٤) المائدة : ٤٦

والمسيحية اذ دعت الى الروحية اذ ذاك لم تقصد الى العزلة عن الحياة كما لم تقصد اطلاقا الى ما سمى فيما بعد بانفصالية الدولة عن الدين. اذ الروحية — وهى المعانى والقيم الانسانية من المحبة والاخاء والتسامح — لا تعنى فى قليل ولا كثير الانصراف تماما عن شئون الحياة كما لا تعنى توزيع الفرد بين سلطتين يخضع لاحداهما بجسمه ويخضع لثانيتهما بنفسه أو روحه وما تعنى به روحية المسيحية أولا وبالذات عدم الانقياد الى المادية نقيادا أعمى وجعلها كل شىء فى حياة الانسان اذ أن جعل « المادية » هى كل شىء فى الحياة يؤدى حتما الى انهيار العلاقات الانسانية أو الى عدم اعتبار الخصائص الانسانية فى الصلات والترابط .

ولكن دعوة المسيحية الى الروحية لم تستمر فى هذا الاطار ، بل صرفت الى طلب العزلة فى الحياة وتأثرت بالاتجاهات الدينية الآسيوية السابقة عليها التى دخلت على الافلاطونية الحديثة ، والتى زحفت الى منطقة الشرق الادنى وهى اتجاهات تميل الى « الغناء » الوجود المادى للانسان وللحياة المادية عامة ولذلك تدعو الانسان الى تقييم الروح وحدها وعبادة الروح الكبرى وهى روح براهما — بتمثلها والافناء فيها والاتحاد معها .

حتى اذا دخلت المسيحية روما وتغلغلت فى رقعة الامبراطورية الرومانية — ابتدأ تيار خفى يتبلور شيئا فشيئا وهو تيار المنافسة بين أصحاب هذه الدعوة من رجال المسيحية وبين من كان لهم السلطات والحياة فى هذه الامبراطورية من الأمراء والنبلاء وقواد الجيش ولكن الاتجاه الى عزل رجال الدين عن الحياة العامة أى عزلهم عن النفوذ والسلطان والابتعاد بالدعوة المسيحية عن مركز الحياة الى هامشها — هو الذى ساد فى القرنين الخامس والسادس الميلادى وبالأخص فى منطقة الشرق الأدنى وفى موطن ميلادها الاول .

وعادت « المادية » اليهودية تسيطر من جديد على هذه المنطقة ، وقبعت « الروحية » المسيحية فى الاديرة وفى صدور الرهبان وحدهم .
« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا

مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين)) . (١)

***

- **الاســـــلام :**

وهنا اختل توازن المجتمع الانسانى من جديد فجاءت رسالة **الاسلام** لتقضى على هذا الاختلال ولتعيد التوازن من جديد للمجتمع البشرى بوصفه كونه مجتمعا بشريا **((قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هـو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)) (٢) ((وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور))** (٣) .

وبذلك كانت دعوة عامة ورسالة بشرية لا تختص برقعة دون رقعة ولا بجنس دون آخر ، وعندما وصف القرآن الكريم الأمة الاسلامية بأنها أمة وسط فى قوله تعالى : **((وكذلك جعلناكم أمة وسطا))** (٤) تقصد الى أن توازن المجتمع هو فى الربط بين المادية والروحية وعدم الوقوف كلية الى جانب المادية كما فهمها شعب اسرائيل وسيطرت على حياته قبل رسالة المسيح أو الى جنب الروحية على ما آلت وتحولت اليه الدعوة المسيحية بعد أن صارت الى الدير والرهبنة ويوضح ذلك تلك الوصية التى وردت فى قوله جل شأنه **((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين))** (٥) .

وكانت للاسلام تعاليم تحدد هذا الوسط أو التوازن ، وترسم المنهج

---

(١) المائدة : ٨٢ — ٨٤ . (٢) الاعراف : ١٥٨ .
(٣) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ . (٤) البقرة : ١٤٣ .
(٥) القصص : ٧٧ .

الســـلوكى للفرد والمجتمع معــا للتخلص من الاختلال أو التطــرف أى الركون الى أحد الطرفين المادية أو الروحية وليس المجتمع البشرى فى نظر هذه التعاليم بموجود مستقل عن الأفراد ، بل هو الأفراد فى علاقات بعضهم ببعض وكما لا يستقل فى محيط الفرد جسم الانسان عن روحه ــ وكذلك فى محيط المجتمع لا يستقل فرد عن فرد ولذا لايعرف الاســــلام «الانفصالية» فى حياة الانسان فلا يفرق فى ولائه بين ما لله وما لغير الله من انسان **« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليــوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »** (١) الولاء كله لله فى بداية الأمر ونهايته .

واذا لم تعرف تعاليم الاسلام « الانفصالية » فى حيــاة الفرد وحياة المجتمع فما من ثنائية يجب التعادل بينها ، اذ لا مفر عندئذ من الاعتراف بقيمة كل من طرفى هذه الثنائية ولذا كان « التعادل » أو « التوازن » هو هدف هذه التعاليم فى سلوك الفرد نحو نفسه وفى صلته بغيره أيا كان هذا الغير أبا ، أو أما ، أو ذا قرابة ورحم أو زوج أو جارا أو قريبــا أو بعيدا أو راعيا ، وكل الأفراد راعون لأنفسهم أو لغيرهم : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .

والخلاصة من هذا كله الآن أن الثورات التى قادها زعماء والتى توفر على توضيحها فلاسفة وأن الرسالات الدينية التى دعا اليها الرسل وتعاليم هذه الرسالات المودعة فى الكتب السماوية ــ هذه وتلك توجد تحت ضغط اختلال التوازن فى المجتمع لتعيد هذا التوازن من جديد فى مجتمعاتها التى قامت فيها .



(١) النســـاء : ٥٩

الفرق بين ثورة وأخرى

والفرق بين ثورة وأخرى اذن ليس فى اسباب قيامها ولا فى اهدافها وانما فى « المفارق » الخاصة التى تعبر بها والتى تستخدمها فى توجيه الثورة .

ولكى يمكن الموازنة بين ثورة وثورة يجب أن نقف قليلا عند العناصر أو الجوانب التى تتحلى كل ثورة .

كل ثورة قامت فى اى مجتمع انسانى حتى الآن — أو تقوم بعد ذلك — يلاحظ فيها جانبان رئيسيان :

(ا) يلاحظ فيها جانب سياسى .
(ب) وجانب أخلاقى .

● الجانب السياسى :

الجانب السياسى يتمثل فى أن تتاح للفرد الحرية فى الحياة . ومفهوم الحرية من المفاهيم التى يكثر تداولها فى تعبيرات قادة الثورات ، ويكثر تأكيدها فى الخطة التى يقوم عليها توجيه المجتمع ورايه العام .

وبغض النظر عن انتزاع تحديد هذا المفهوم من اية ثورة من الثورات فانا ندرك بعيدا عن التأثر بأى تحديد منها أن حرية الفرد فى الحياة داخل المجتمع الذى يوجد فيه :

هو أن يكون متساويا فى الوضع أمام الفرص التى توجد فى المجتمع الذى يعيش فيه . وهى فرص الكسب .. فرص العمل والمهنة .. فرص ممارسة النشاط السياسى فى توجيه الحكم . وكذلك يكون متساويا أمام

القانون فيما يعبر وفيما يرى وفيما يعتقد وفيما يمسك . ولا تمييز بين فرد وفرد آخر فى تطبيق القانون عليهما .

وليس معنى التساوى أن يكون حظ كل فرد هو حظ الآخر فى الحياة فى الملك ، أو الجاه أو السلطة لأن ذلك ضد طبيعة الانسان .. فالأفراد متفاوتون حتما فى الطاقات والاستعدادات البشرية . فاذا اتيحت لأفراد المجتمع عامة فرص الحياة المختلفة . أى اذا أمكن لهم ممارسة طاقاتهم جميعا بالتساوى ، لافرق بين واحد وآخر ، فسيبرز أصحاب الطاقات القوية وسيتقدمون غيرهم فى جوانب حياة المجتمع وحينئذ يأتى التمايز فى الملك ، أو الجاه ، أو السلطة لبعض افراد المجتمع على بعض .

انها سنة الحياة الانسانية . سنة التفاضل والتمايز بين الأفراد ، ولكن ليس من سنة الحياة الانسانية أن يأتى التفاضل والتمايز عن طريق وضع العقبات أمام البعض وتخليتها من طريق البعض الآخر . تكافؤ الفرص مبدأ طبيعى فى حياة الأفراد بعضهم من بعض فى مجتمع واحد ، واتاحة الفرصة لفريق دون فريق بسبب اللون أو الجنس أو القبيلة أو المذهب أو غير ذلك من العوامل التى تدعو اليها الحزبية والفرص وضع غير طبيعى فى حياة المجتمع أى مجتمع .

وعن هذه الحرية أو عن هذا التساوى أمام الفرص وأمام القانون يتفرع مبدأ الملكية الفردية ومبدأ صيانة الحرمات المختلفة : حرمة النفس وحرمة المال وحرمة العرض وحرمة المسكن .

وليس معنى الحرية الفردية داخل نطاق المجتمع الانطلاق من قيود المجتمع الممثلة فى قوانينه وعرفه وعاداته . ان ذلك ليس حرية فردية فى مجتمع بل فردية وانفصالية عن المجتمع نفسه . اذ المجتمع الانسانى لا يكون مجتمعا انسانيا الا اذا كان هناك وعى جماعى ويقظة جماعية بالمجتمع نفسه . والوعى أو اليقظة الاجتماعية تتكون بناء على شعور داخلى فى الأفراد بالترابط فيما بينهم على أساس من علاقات مشتركة تتبلور فى أهداف مجتمعهم ونظرته الخاصة الى الحياة . ويقتضى الترابط على أساس مشترك أن يكون هناك اعتراف من كل فرد فى المجتمع لكل فرد آخر فى المجتمع بحقه فى الحياة بل وفى حقه فى المساعدة والمعاونة على الحياة اذ بدون ذلك لا تتحقق أهداف المجتمع .

والاعتراف من كل فرد فى المجتمع لكل فرد آخر فى المجتمع بالحق فى الحياة يتطلب أن يحد كل فرد من رغباته أو أمانيه ليخلق مكانا فى المجتمع لحياة الفرد الآخر وعن هذا التحديد تنشأ قوانين المجتمع ويتكون عرفه وتتكون عاداته . وبعد ذلك اذا فهمت الحرية الفردية فى اطار المجتمع على انها الانطلاق فهى الشذوذ اذن والخروج والانفصال عن المجتمع .

والحرية الفردية كما يترتب عليها اباحة حق التملك وصيانة الحرمات الاربع والمساواة أمام القانون فى التعبير والرأى والاعتقاد يترتب عليها أيضا عدم وجود طبقات فى المجتمع ، لأن وجود الطبقات فى أى مجتمع ينبىء عن عدم وجود هذه الحرية الفردية بالنسبة لكل الأفراد وينبىء عن عدم اتاحة الفرصة فى جوانب النشاط المختلفة بالتساوى لجميع الأفراد ولذا قامت طبقات على أساس مشترك بين أفرادها .

قد يكون هذا الاساس رأس المال وقد يكون نوع الوظيفة كالعمل فى القطاع الحكومى وقد تكون الحزبية السياسية فى ممارسة نشاط الحكم .. الى غير ذلك من الاسس التى تفرق وتجمع فى الوقت نفسه داخل المجتمع المعين .

وهذه الحرية الفردية التى تترتب عليها تلك الآثار قد يكون من عوامل توافرها وتواجدها دفع السلطة الداخلية فى المجتمع ودفع النفوذ الاجنبى عن مجالات النشاط فيه — الاقتصادية والسياسية والتوجيهية والثقافية — وهنا يكون كفاح الثورة مع النفوذ الأجنبى كفاحا ضروريا لتمكين أفراد المجتمع من الحرية الفردية أى من وضعهم وضعا متساويا أمام الفرص وأمام القانون .

● الجانب الأخلاقى :

أما الجانب الآخر الذى يلاحظ فى كل ثورة فهو الجانب الاخلاقى وهو الجانب الذى يتمثل فى الاحتفاظ بكرامة الفرد فلا تهدر آدميته وانسانيته بالسخرة والاسترقاق فى صورة ما فى علاقته بغيره . وليس معنى الاحتفاظ بكرامة الفرد أن لا يوجد فى المجتمع صاحب عمل وأجير ولا مالك ومستأجر لهذه الأرض ولا مخدوم وخادم ، وانما معنى ذلك ألا يستذل فرد فى وضع ما أجيرا أو مستأجرا أو خادما . اذ بدون الاحتفاظ بكرامة الفرد لا تتحقق الحرية الفردية السابقة كما انه بدون هذه الحرية الفردية لا توجد كرامة انسانية للفرد .

هذان المفهومان للحرية الفردية والكرامة الانسانية للفرد تحديدهما على هذا النحو منبثق من معنى الثورة أى الثورة التى قامت لتزيل اختلال التوازن وتعيد من جديد علاقات الأفراد الى الوضع الطبيعى . وليس تحديدها الآن مشتقا ومنتزعا من ثورة بعينها .

وكما أن تحديدها مشتق من طبيعة الثورة فتلازم أحدهما للآخر من لوازم هذه الطبيعة الاصيلة . واذن « السياسة » التى تقوم على اساس توفير الحرية الفردية فى المجتمع لا تنفصل عن « الاخلاق » التى تدعو لتوفير الكرامة الانسانية والاحتفاظ بهذه الكرامة فى السلوك والتصرف وهنا تتضح العلاقة المشتركة بين معنى « الثورة » ومعنى « الرسالة الدينية » فكلتاهما تهدف الى تحقيق الأمرين معا فى المجتمع البشرى . وهنا نشير مرة أخرى الى أن فصل السياسة عن الأخلاق فى حياة الانسان والمجتمع : فصل مصطنع . وارسطو الفيلسوف الاغريقى عندما ربط بين السياسة والاخلاق كان طبيعيا فى تفكيره وكان بعيدا عن التأثر بالعوامل التى اصطنعت هذا الفصل فيما بعد فى تاريخ الفكر البشرى .

• الموازنة بين صور الثورات الحديثة :

ولننتقل الآن الى الموازنة بين صور الثورات الحديثة التى جدت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من جانب والثورة العربية من جانب آخر فى ضوء هذا التصوير الموضوعى لمعنى الثورة وتحديد مفاهيمها التى تستخدم فى التعبير والتوجيه .

والثورات الحديثة كلها ومن بينها الثورة العربية تطلق على نفسها كلمة الاشتراكية تعبيرا عما تهدف اليه من اعادة التوازن فى المجتمع فهى ثورات اشتراكية أى ثورات من أجل الجماعة والمجتمع فى « سوشيالزم » وفى واقع الامر لا تختلف كلمة الاشتراكية عن كلمة التوازن الجماعى فى المقصد .

وسنرى أن المغايرة أو المفارقة بين ثورة وأخرى هى فى القرب أو البعد من التحديد الموضوعى للمفاهيم المشتقة من معنى الثورة والتى ترددها كل ثورة فى التعبير عن خصائصها والاندفاع بها .

ولنقصر أنفسنا على مفاهيم ثلاثة : تدور فى كل هذه الثورات وهى الاشتراكية والحرية والكرامة الانسانية .

• الاشتراكية ، الحرية ، الكرامة الانسانية :

نستعرض أولى هذه الثورات الحديثة ، وهى الثـورة الشـيوعية ونستعرض فيها معنى الاشتراكية وموضع الحرية الفردية ومكان الكرامة الانسـانية :

• الاشتـراكية الشـيوعية :

الاشتـراكية الشيوعية هى نقل الملكية الفردية من افـراد المجتمع الشيوعى الى « الدولة » أو المجتمع . والدولة عندئذ هى التى تتكفـل بالاعانة عن طريق منح العمل فى المزرعة أو المصنع وبالخدمات العامة عن طريق أجهزتها المختلفة . ورأت أن فى نقل الملكية الفردية على هـذا النحو قضاء على الطبقات واعادة لتوازن المجتمع . والاشتراكية بهذه الصورة تنطوى على حرمان وتحريم فى الوقت نفسه لتملك الفرد . والتملك الفردى ليس مظهرا فحسب من مظاهر الحرية الفردية التى سيأتى الحديث عنها هنا فى النظام الشيوعى . ولكنه متنفس لأصل رئيسى من أصـول الطبيعة الانسانية وهو غريزة الذات أو غريزة حب البقاء . فذات الفرد تدفع دفعا (غريزيا) نحو السعى وتحصيل ما يفى الذات وما يجعلها تستمر فى البقاء . ومن بين ما يعينها على البقاء ويؤمنها على الوجود الشخصى المال الخاص المثل فى الملكية الفردية . ولهذا ترى الذات الفرديه لـذة ومتعة فى السعى نحو تحصيل المال الخاص وتنميته . فاذا حرمت من الملكية الفردية سبقت الى العمل والسعى فى سبيل العيش بدافع خارجى ، هو دافع القانون المسلح والرقابة السرية واصبح الانسان فى المجتمع الشيوعى حينئذ انسان « الجبر » لا انسان « الاختيار » . انسان « السخرة » والاكراه نحو العمل .. لا انسان « الارادة » .

ومع ذلك لا تحقق الاشتراكية الشيوعية هدف التوازن فى المجتمع . فليس التوازن فى فرع المال الخاص ووضعه تحت حراسة باسـم الدولة أو المجتمع يتعيش منه أفراد المجتمع حسبما ترسم الدولة . وهى القيادة العليا التى تتغير تغيرا فيه قسوة وفيه اكراه كذلك . ولكن هدف التوازن هو فى الشعور النفسى للأفراد بعدم « الظلم » وبعدم الاكراه على نوع العمل والظلم لا يتمثل فى حرمان ذى الحاجة من حاجته فحسب وانمـا

قبل ذلك يتمثل فى حرمان الانسان من انسانيته التى أخص مظاهرها الحرية والكرامة .

وكيف تحقق الاشتراكية الماركسية توازن المجتمع وهى تقوم على سلب ما فى يد أفراد المجتمع مما يملكون ولا ينفع عندئذ بديلا من هذا السلب والحرمان اعطاء العمل ثانية للافراد ، فاعطاء العمل عملية كراء .. هى اعطاء فى مقابل اخذ .. هى تبادل مجهود بشرى مع سلعة من سلع الحياة بحيث لو انقطع هذا المجهود البشرى أو ضعف لانعدمت السلعة أو انحسرت كميتها .

أما المفهوم الآخر وهو مفهوم « الحرية الفردية » فالماركسية — وهى اساس الشيوعية — تنزع فى تقديرها من النظرة الى الفرد . « والفرد » فى اعتبارها مخلوق للبيئة المادية وللجانب الاقتصادى على الأخص ، من جوانب المجتمع . وبهذا الاعتبار ليس وضعه وضعا ثانويا فى الوجود فقط بعد المجتمع . بل هو محدد ومقدر ومسير لا مخير ، بتحديد المجتمع وتقريره وارادته . والجانب العقلى أو النفسى فى الانسان تابع لجانبه المادى وهو جسمه . واذن تفكير الانسان تابع لتابع ، هو تابع لجسمه ، وجسمه تابع للمجتمع .

ونتيجة هذه النظرة أن الحرية الفردية خرافة وأن الانسان لا يملى على المجتمع فضلا عن أن يخلقه وعلى العكس : المجتمع هو الذى يصوغ الانسان وهو الذى يوجهه .

والمجتمع الشيوعى اذن ليس مجتمع تكافؤ الفرص وانما هو مجتمع الزام فى التوجيه نحو العمل وليس مجتمع مساواة بحيث يترك الأفراد أمام أوضاع متساوية ويتميز بعضهم على بعض بعد ذلك بمدى الاستعدادات الفردية التى تختلف وتتمايز عند الأفراد بحكم الطبيعة والفطرة . وانما هو مجتمع «انتخاب» للعناصر المفضلة أو التى يرى أنها مفضلة . والتفضيل فيه بين الأفراد اذن عملية فيها اصطناع أو فيها تدخل وليس نتيجة لسنة الوضع الطبيعى .

وأفراد المجتمع الشيوعى كما لم تكن لهم الحرية الفردية بمعنى وضعهم جميعا وضعا متساويا أمام الفرص المختلفة لم تكن أيضا هذه الحرية بمعنى وضعهم وضعا متساويا أمام القانون . فقانون هذا المجتمع لا يسوى بين صاحب العقيدة الماركسية وبين الذى لا يدين بها فى نطاقه .

واذا انتقلنا بعد ذلك الى المفهوم الثالث ، وهو مفهوم « الكرامة الانسانية » نجد ما يدل عليه فى النظام الشيوعى لهذا المفهوم يساوى « السخرة » فانسان حرم من الملك ومنع من أن يتملك وفقد حريته الفردية والزم بنوع العمل ونوع الاعتقاد وارتبط مصيره فى الحياة بما يعطى من غيره هو فى واقع أمره مكره على الحياة ومسخر على السعى فيها .

وفوق هذا وذاك انسان فقد حرية التعبير عما يفكر ، هو انسان قضى عليه بالصمت وهو الكائن الناطق ، كما قضى عليه من قبل بالتبعية وهو صاحب المشيئة فى خلقه وفى طبيعته .

والثورة الشيوعية — بعد ذلك — التى قامت لتزيل اختلال التوازن فى المجتمع الروسى أولا قامت لتزيل سيطرة القيصرية وتحكم رأس المال والاقطاع وترفع قداسة بعض الطبقات — كطبقة رجال الكنيسة — مكنت لسيطرة الدولة والمجتمع وأضفت عليها لونا من القداسة لم تتمتع به الكنيسة من قبل .

والثورة الشيوعية التى تحدت الله وقوضت محرابه فى الكنيسة وجهت رعاياها الى معبود آخر هو « الدولة » وبنت له محرابا جديدا أسمته « العلم » .

● اشتراكية الفاشية :

وهى اشتراكية — كما سبق أن أشرنا — قصدت الى عدم تمكين الشيوعية بعد أن هزمتها بالاستيلاء على روما وعلى سلطة الحكم فيها من أن تنفذ الى الوطن الايطالى من جديد . ومن أجل ذلك ارتكزت على مقومات الحضارة الرومانية وعلى ما خالط هذه الحضارة من القيم المسيحية واستعانت بهذه وتلك فى توجيه الشعب الايطالى وابعاده عن الشيوعية ، كما عمدت الى خلق فرص للعمل كى تقضى على البطالة بين عمال المصانع التى كانت سببا من أسباب تسرب الشيوعية الى الوطن الايطالى .

واذا كانت الاشتراكية الفاشية رد فعل للتسرب الشيوعى ، فان تحديدها لمفاهيم الاشتراكية وللحرية الفردية وللكرامة الانسانية لا يكون جفيدا كل الجدة ولا غريبا عن المعانى التى تستنبطها الحضارة الرومانية وقيم المسيحية كما تصورها الكنيسة الكاثوليكية .

ولذا كانت الاشتراكية فى النظام الفاشى اقتطاع من ارباح رأس المال فى الصناعة ومن غلة الاقطاع فى الزراعة وتوجيه ما يستقطع للخدمات العامة أو لخلق فرص جديدة للمتعطلين فى كلا القطاعين أو للتنمية الاقتصادية الجماعية بوجه عام .

أما مفهوم الحرية الفردية وكذا مفهوم الكرامة الانسانية فكان لا يحدهما الا احتياجات المجتمع الايطالى أو صالحه بصورة اجمالية .

والفرد الايطالى فى نظام الفاشية وان لم يكن وليد المجتمع على نحو ما ترى الشيوعية فقد وضع فى خدمته . والدولة الفاشية وان لم تكن معبودا للفرد الفاشى ولكن سلطانها امتد الى كثير من جوانب حياته .

وربما لأن هذا النظام الفاشى كان رد فعل للشيوعية ومن أجل ذلك ابتدأ خط سيره بين المجتمع والجماعة ليصل الى الفرد ولم يبتدئه من الفرد ليصل الى الجماعة والمجتمع .. لأنه كان كذلك لم يتمكن من أن يبلغ الى الغور البعيد فى نفس الفرد فيجعله لبنة قوية يتكون منه ومن غيره مجتمع قوى لم يتمكن من جهل اليقظة بالذات وبالمجتمع معا حقيقة واحدة فى نفس الفرد ، تتضح فى تفكيره وفى عمله على السواء .

وهنا كانت نقطة الضعف التى بدت فى الهزائم العسكرية للجيش الايطالى فى الحرب العالمية الثانية : فى اليونان .. وفى خيانة البحرية الايطالية فى تمويل الفرقة الأفريقية الألمانية بليبيا أثناء هذه الحرب .

● اشتراكية النازية :

وهى اشتراكية فى غرار اشتراكية الفاشية قامت لتواجه التسرب الشيوعى من جانب وسيطرة اليهودية العالمية على القطاعات الحيوية فى المجتمع الألمانى . من جانب آخر . وهى لا تتميز كثيرا فى تحديدها لمفاهيم الاشتراكية والحرية الفردية والكرامة الانسانية عن الفاشية الايطالية ولا فى تطبيقهافى حياة الفرد وفى علاقته بالجماعة ولكنها تختلف بعد ذلك فى شيئين .

أولا : انها كرد فعل للتغلغل اليهودى العالمى فى أفظع صورة لتغلغل دخيل — وقفت من اليهود ومن نفوذهم موقفا فيه كثير من الغلو والقسوة .. لم تفعله الفاشية ولم تكن هى بحاجة الى أن تفعله .

ثانيا : ان النازية وان كانت رد فعل للشيوعية وابتدأت من أجل ذلك من قطاع الجماعة والمجتمع كما فعلت الفاشية الا أن الفرد الألمانى قد عرف منذ زمن طويل بأنه « انسان الواجب اى ذلك الفرد الى يفعل ما يجب عليه نحو نفسه وجماعته دون انتظار لجزاء قريب أو بعيد من غيره . اذا أنه يكتفى فى عمله للواجب أنه قد أدى ما وجب عليه فأرضى ضميره .. وتوارث الشعب الألمانى « الخلقية للواجبية » منذ « كانت » فى القـــرن الثامن عشـــر .

وبالاضافة الى ذلك أيقظ فى نفوسهم معنى الوطن والمجتمع وحببه الى قلوبهم لدرجة الفداء والتضحية « فلسفة نيتشه » .

وبهذا غاير الفرد الألمانى فى المجتمع النازى الفرد الايطالى فى المجتمع الفاشى من حيث الوعى الجماعى وبدت هذه المغايرة فى المقاومة العنيفة التى قام بها الجيش الألمانى فى جميع ميادينه وفى تحديه الذى وجهه الى جميع القوى العالمية الخارجية .

***

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث : نظم الحكم المعاصرة

(٤٩ — ٨٩)

الفصل الرابع : الشيوعية والدين

(٩١ — ١٠٨)

الصفحة

الفصل الخامس : نحو كتلة ثالثة

(١٠٩ — ١٢٠)

الفصل السادس : المجتمع العربى وفلسفة الاشتراكية

(١٢١ — ١٤٤)

الصفحة

رقم الايداع ١٧٤٦ / ٨٣

الترقيم الدولى ٧ــ٠٧ــ٠٠٧ــ٣٠٧ــ٩٧٧

كتب المؤلف

١ ــ الجانب الالهى فى التفكير الاسلامى .
٢ ــ الفكر الاسلامى الحديث .. وصلته بالاستعمار الغربى .
٣ ــ الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر .. مشكلات الحكم والتوجيه .
٤ ــ الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر .. مشكلات الأسرة والتكافل .
٥ ــ الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة .
٦ ــ خمس رسائل الى الشباب المسلم المعاصر .
٧ ــ تهافت الفكر المادى التاريخى .. بين النظرية والتطبيق .
٨ ــ غيوم تحجب الاســلام .
٩ ــ الاسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر .
١٠ ــ طبقية المجتمع الأوروبى .. وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى .
١١ ــ الفكر الاسلامى فى تطوره .
١٢ ــ الاسلام فى حياة المسلم .
١٣ ــ رأى الدين بين السائل والمجيب .. فى كل ما يهم المسلم المعاصر (جزآن معا) .
١٤ ــ رأى الدين بين السائل والمجيب .. فى كل ما يهم المسلم المعاصر (الجزء الثالث) .
١٥ ــ رأى الدين بين السائل والمجيب .. فى كل ما يهم المسلم المعاصر (الجزء الرابع) .
١٦ ــ نحو القرآن .
١٧ ــ القرآن .. والمجتمع .
١٨ ــ منهج القرآن .. فى تطوير المجتمع .
١٩ ــ المجتمع الحضارى وتحدياته .. من توجيه القرآن الكريم .
٢٠ ــ الدين والدولة .. من توجيه القرآن الكريم .
٢١ ــ من مفاهيم القرآن .. فى العقيدة والسلوك .
٢٢ ــ حياتى فى رحاب الأزهر .. طالب . وأستاذ . ووزير .

- الى جانب مجموعة من الرسائل بلغ عددها ٢٣ رسالة .
- بالاضافة الى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم فى ٢٤ كتابا .

تطلب من : مكتبة وهبة ــ ١٤ شارع الجمهورية ــ عابدين ــ القاهرة
تليفــــون : ٩٣٧٤٧٠